د. سالم علوي
أستاذ علوم اللسان العربي
بجامعة الجزائر المركزية

شجاعة العربية

أبحاث ودروس في فقه اللغة



دار الآفاق

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

صدق الله العظيم

سورة الزخرف / الآية 3

DAR AL AFAQ
10 rue Mustapha Khalef, EL Biar
Alger
شجاعة العربية

ISBN : 9961-57-200-9
DL : 443 - 2006

I - ديباجة :

هذا العنوان ليس من لدُنّي ، ولا من اختيَاري ، وإنما اقترضته من لدنّ عالم مُتَمَكّن أمْكَنَ في علوم اللسان العربي، ذلك هو أبو الفتح عثمان بن جنّي، الذي شاء أن يعنونَ الباب السابع والتسعين بهذا العنوان في مؤلّفه القيّم (الخصائص) الذي لا يستغني عنه أيّ باحث لسانيّ في أيّ عصر من العصور، ومن أي أمة وجيل كان ، لأنّ " طريق الحسّ موضوع تتلاقى فيه طباع البشر، ويتحاكم إليه الأسود والأحمر" . ([1]) كما يقول هو نفسه . ولئن كان الحسّ موضع تلاق ، فإن اللغات موضع افتراق ، مصداقا لقوله تعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ ﴾ . ([2])

وبذلك تختصّ كلّ لغة بمميّزات ذاتيّة تتمثّل في نظامها الصوتيّ والإفراديّ والتركيبي والدلاليّ ، وما العربية إلا لغة من بين اللغات البشرية، التي قد أنعم الله بها على العرب خصّيصا ، وعلى مَن اختارها لسانا وتأليفا، ونزل بها آخر كتاب سماويّ ﴿ لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ ([3]) . فتعزّزت العربية بهذا المعطى الإلهيّ، وظلت صامدة شامخة أمام كلّ اللغات التي التقت معها، ولم ينل الخصوم منها شيئا، رغم طغيان المنطق الإغريقي وفلسفته. إن فكرة عالمية الأفكار وخاصيّة اللغات فكرةٌ أكّدتها الدراسات اللغوية قديما وحديثا .

---

[1] - ابن جنيّ : الخصائص . مطبعة دار الكتب المصرية 1371 هـ 1952م. ج1. ص 90 .

[2] - الروم ، الآية 22

[3] - فصّلت . الآية 42

يقول أبو حيّان التوحيديّ على لسان أبي سعيد السيرافيّ، وهو يُحَاجّ بِشْرَ بنَ مَتّى المنطقيَّ : " وهو أن تعلم أن لغة من اللغات لا تطابق لغة أخرى من جميع جهاتها بحدود صفاتها ، في أسمائها وأفعالها وحروفها وتأليفها، وتقديمها وتأخيرها، واستعارتها وتحقيقها، وتشديدها وتخفيفها، وسعتها وضيقها، ونظمها ونثرها، وسجعها ووزنها، وغير ذلك .. مما يطول ذكره . وما أظنّ أحداً يدفع هذا الكلامَ أو يشكّ في صوابه، مما يرجع إلى مُسْكَةٍ من عقل أو نصيب من إنصاف . فمن أين يجب أن تثق بشيء تُرْجِمَ لك عن هذا الوصف؟ !.. بل أنت إلى تَعَرُّف اللغة العربية أحوج منك إلى تعرّف معاني اليونانية ، على أن المعاني لا تكون يونانية ولا هندية ، كما أنّ اللغات تكون فارسية، وعربية وتركية، ومع هذا فإنك تزعم أن المعاني حاصلة بالعقل والفحص و الفكر، فلم يبق إلا إحكام اللغة العربية . فَلِمَ تُزْرِي على العربية، و أنت تشرح كتب أر سطو طاليس بها مع جهلك حقيقتها ؟ " . [1]

وعلى ضوء هذا النص نستشف أن الصراع بين اللغات قديم . لذا اختار ابن جني هذا العنوان " شجاعة العربية " لِمَا أحَسّ به من طُغيان المنطق الإغريقي و استيلائه على منافذ التفكير اللغوي العربي ، فكان لزاما عليه أن يتعمق في دراسة العربية، لينتهي به البحث العلمي إلى شجاعتها و قدرتها على التعامل مع الواقع السائد في المناظرات والمساجلات اللغوية آنذاك، بل ويخترق الآفاق بفكره اللغوي الثاقب مستقبلَ تسابق اللغات في عصر" العولمة " و " الأنترنيت " .

هذا العصر الذي تكسرت فيه القيود، وهدّمت السدود بين اللغات الحديثة ولم تصبح اللغات وسيلة للتبليغ والتواصل فحسب، و إنما أصبحت

1 ـ أبو حيان التوحيدي . الإمتاع و المؤانسة . ضبط وتحقيق الأستاذين : أحمد أمين وأحمد الزين، دار مكتبة الحياة بيروت . ب. تا. ج1 . ص 115 : 116

القوة الفاعلة، فهي أقوى و أغنى من المفاعيل النووية و القنابل الذرية، لذا تسابق الأقوياء في نشر لغاتهم عبر المراكز الثقافية أولا، و الأنترنيت ثانيا ليصلوا إلى العولمة التي يرمون من ورائها إلى الهيمنة التامة على الإنسانية جمعاء في لغتها وفكرها ومصطلحاتها و مخترعاتها.

ولكن إذا كان المنطق الإغريقي القديم استبد بأفكار المناطقة و اعتقدوا أنه العلم الصحيح الذي تُسْتَوْضَحُ به المعاني والدلالات، وتدرك به المقاصد والغايات، و أن حظ علم العربية من هذا الجانب هزيلٌ، فإن نزعة الولوع بالغريب الدخيل تفاقمت في عصرنا هذا أكثر، وأصابت أغراضها عند بعض اللغويين المعاصرين الذين لم يطلعوا على ما تزخر به المعارف العربية الأصيلة من عمق في الدراسات اللغوية، والتآليف العربية التي اتصفت بصفة الثبات والاستمرار، على مدى الأعصار، وما إعراض الناس عن الأصيل إلا لأن " الناس موكلون بتعظيم الغريب واستطراف البعيد، وليس في الموجود الراهن، وفيما تحت قدرتهم من الرأي و الهوى، مِثْلُ الذي لهم في الغريب القليل، وفي النادر الشاذّ، وكلّ ما كان في مُلْك غيرهم، وعلى هذا زَهِدَ الجيران في عالمهم، و الأصحاب في الفائدة من صاحبهم، وعلى هذا السبيل يستطرفون القادم عليهم، ويرحلون إلى النازح عنهم، ويتركون من هو أعم نفعا و أكثر في وجوه العلم تصرُّفا، و أخفّ مؤونة و أكثر فائدة، ولذلك قدَّم الناسُ الخارجيَّ على العريق، و الطارفَ على التليد" . ([1])

وحُجّة هؤلاء أن المصطلح العربي غير منضبط ، ولا ينطبق كل الانطباق على المخترعات العصرية ، بينما المصطلح الوافد منضبط ودقيق.

و الحقيقة أن هذا الانبهام الحاصل في أذهان هؤلاء القوم ناتج عن الارتهان الحضاري، والضلال الثقافي، و الأزمات الفكرية التي يتخبطون فيها،

---

[1]- الجاحظ : البيان و التبيين. تحقيق عبد السلام محمد هارون ، مطبعة الخانجي 1380 هـ 1960 . ج1 ، ص90

بسبب تخليهم عن الثقافة العربية الأصيلة، فقد تعلّموا العربية بوساطة اللغات الأجنبية. فاكتسبت هذه اللغات صفة الجبر و القهر. ولغة المنشأ و المولد، لأنهم نُشِّئوا عليها ورُبُّوا في أكنافها .

أجل قد يرى بعض العلماء العرب المعاصرين ذوي النيات الحسنة فائدة من استعارة مصطلحات الآخرين، و استخدامها كمفاتيح فكرية، و مداخيل ثقافية للتعامل مع علوم اللسان العربي بأفكار متفتحة، وهو رأي صائب وسديد. نشاطر أصحابَه ونؤيدهم. شريطة ألاّ تكون هذه المصطلحات مغايرة لذواتنا العربية ولموروثنا الحضاري و الثقافي، ومن هنا يجب أن نَتَحَفَّظ في الاقتراض .. متى يُقْبَل ؟ و متى لا يُقْبَل ؟

هذا وقد نبَّهَنا القرآنُ على ذلك عندما نهانا عن مصطلح" رَاعِنَا" و أرشدنا إلى" انظُرْنَا" ، لأن في " راعِنا" غَرَضًا خبيثا رامه اليهود والمشركون للاستهزاء بالرسول (ﷺ) وأتباعِه. فقال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا ﴾ (1) ، وذلك لأنه من المسلَّم به لغويا و فكريا أن إدراك أبعاد النص اللغويّ تماما لا يمكن أن تكون بغير لغته الأصلية، وأن عُجْمَة اللسان يمكن أن تؤديَ إلى عجمة القلب و البيان . وعجمةَ التعبير يمكن أن تؤديَ إلى عجمة التفكير.

نعم ثمّ نعم لِتعلُّم اللغات الأجنبية وتفهّمها، شريطة أن تكون روافد للعربية. لا أن تكون مغاليق لأسرارها ، ولنا المثل الحيّ فيما كتب علماؤنا الأبرار، أمثال الجاحظ، وهو يتحدّث عن مصطلح البلاغة، فقال : " خبّرني أبو الزبير، كاتب محمد بن حسان، وحدثني محمد بن أبان، ولا أدري كاتب من كان قالا :

- قيل للفارسي : ما البلاغة ؟ . قال : معرفة الفصل من الوصل.
- وقيل لليوناني : ما البلاغة ؟ . قال : تصحيح الأقسام ، واختيار الكلام.

1- البقرة . الآية 104

ـ وقيل للرومي : ما البلاغة ؟ . قال : حسن الاقتضاب عند البداهة ، والغزارة يوم الإطالة.

ـ وقيل للهندي : ما البلاغة ؟ . قال : وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة ، وحسن الإشارة " . ([1])

هكذا يستعرض علماؤنا الأنظار المختلفة بأمانة علمية دون إصدار أحكام عليها بالصواب والخطأ، ويتقبلونها بأريحيّة عربية متفتحة، لا تخشى الغريب ولا تستهجنه، آخذين ما يتوافق وطبيعة الفطرة العربية التي أنشأ الله الأمة العربية عليها، و بها نزل القرآن الكريم، لأنها من الفطرة الإلهية التي فطر الناس عليها جميعاً.

ثم يخلصون إلى مفهوم البلاغة عند العرب العرباء، لا على أنهم أفضل الناس نسبا وعرقا، ولكن على أساس أن لهم فضلا في القول، ودِرَايَة بمجاري البيان. فيعمد الحذّاق من علماء اللسان العربي إلى مساءلة الأعراب الذين لم تمسسهم لَوْثَةُ الأعاجم . " قال ابن الأعرابي؛ قال معاوية بن أبي سفيان لصُحار ([2]) بن عيّاش العبدي : ما هذه البلاغة التي فيكم ؟ . قال : شيء تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا . فقال له رَجُل من عُرض القوم : يا أمير المؤمنين؛ هؤلاء بالبُسر والرُّطَب أبصر منهم بالخطب. فقال صُحار : أجل؛ والله إنا لنعلم أن الريح لتلقحه ، وأن البرد ليعقده؛ وأن القمر ليصبغه، وأن الحرّ لينضجه.

وقال له معاوية : " ما تعدون البلاغة فيكم ؟ . قال : الإيجاز؛ قال له معاويةُ : وما الإيجاز؟ . قال صُحار : أن تجيب فلا تخطئ ، وتقول فلا

---

[1] ـ الجاحظ : البيان والتبيين، ج1 ، ص 88

[2] ـ هو صُحار بن عيّاش من بني عبد القيس ، كان من شيعة عثمان ، و كان علاّمة نسّابة. توفي 40 هـ.

تبطئ" . فقال معاوية : أو كذلك [illegible] " قال [illegible]
يا أمير المؤمنين أن لا تبطئ و لا تخطئ " . [1]

هذا التوجّه العلمي الذي يقبل آراء الآخرين [illegible] إليه لنتدارك ما فاتنا من المخترعات ونسميها بمصطلحاتها العلمية، وننشئ علما لسانيا مؤسسا على قواعد راسية تضرب بجذورها في أعماق التاريخ، وتستشرف المستقبل على هداية من المعرفة العلمية التي لا ينازع فيها أحدٌ من علماء اللسانيات العامّة. فالعربية ليست لغة جامدة؛ بل هي لغة نامية متحركة قابلة للتطوّر في كل الميادين الصناعية والتجارية والتكنولوجية والثقافية والسياسية، وكل مناحي الحياة المعاصرة والآتية، فهي لغة معطاة لا تعرف التوقّف ولا التخلّف، لذلك وسمها ابن جني بالشجاعة.

وخلاصة القول إن العربية هي لسان بشري قائم بنفسه، يستمدّ مقوّماته الأساسية من الطبيعة. فلا علاقة له بأسطورة اللغة " الساميّة" التي لا وجود لها إلا في أذهان المفترضين، الذين يفترضون افتراضات تسهيلا لأعمالهم، وينسون أنها مجرّد افتراضات وهمية، بخلاف اللغات الأخرى ، كالسنسكريتية واللاتينية، والإغريقية، فإن نظم هذه اللغات الصوتية والإفرادية والتركيبية والدلالية قائمة موجودة، وتطورت إلى لغات تباينت فيما بينها، واحتفظت بالأصل العام العضويّ. وهذا الأصل العربي أدركه جيدا الأستاذ زكي الأرسوزي الذي يقول : " إن اللسان العربي ذو بيان عضويّ تنمّ فيه الكلمة عن المعنى، وتوحي به إيحاء حتى أن اتجاه المعنى هو الاتجاه المتغلّب على اللفظة مما يجعل صاحبها أكثر استعدادا من غيره لفهم الأخلاق والديانة ؛ إنما هو منظومة صوتية تعبّر عن وجهة الأمة التي أنشأته ودلّت عليه " . [2]

---

[1] ـ المصدر السابق نفسه . ص 96

[2] ـ زكي الارسوزي : من مقال للدكتور جعفر دك الباب (رحمه الله) ، المعرفة السورية. سنة 1980 . عدد مزدوج . 222 / 223 . ص11

وعلاقة إيحاء الصوت بالمعنى الدال عليه عرفها العلماء العرب منذ عهد سيبويه الذي لاحظ التكافؤ بين بنية بعض المصادر ودلالاتها، فقال : " و من المصادر التي جاءت على مثال واحد حين تقاربت المعاني قولك : النَّزَوَان و النقزان، و إنما هذه الأشياءُ في زعزعة البدن واهتزازه في ارتفاع، ومثله العسلان والركتان ... ومثل هذا الغليان لأنه زعزعة و تحرُّك، ومثله الغَثَيَان لأنه تَجَيُّشُ نَفسِه وَتَثَوُّر، ومثله الخَطَران واللَّمَعَان لأن هذا اضطرابٌ وتَحَرُّك . ومثل ذلك اللهبان و الصدخان والوهجان لأنه تحرّك الحرّ و ثؤوره، فإنما هو بمنزلة الغَليان " . (1)

ومن النكت اللغوية التي تُنْسَب إلى بعض الذين استهواهم هذا الاتجاه ما رواه السيوطي في مزهره . فقال : " و كان بعض من يرى ـ هذا الرأي ـ يقول إنه يعرف مناسبةَ الألفاظ لمعانيها . فسئل : ما مسمى" إذغاغ" ؟ ـ و هو بالفارسية الحجر ـ فقال : أجد فيه يُبْسًا شديدا و أراه الحجر.

و أنكر الجمهور هذه المقالة ، وقال : " لو ثبت ما قاله لاهتدى كل إنسان إلى كل لغة، و لما صحّ وضعُ اللفظ للضدّين ، كالقُرْء للحيْض و الطُّهْر، و الجون للأبيض و الأسود ". (2)

و قد أفاض " ابن جني" في هذا كثيرا، و خصّص له بابين في الجزء الثاني من كتابه " الخصائص" ، وهما : " باب في تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني" و الآخر" باب في إمساس الألفاظ أشباه المعاني" .. فقال : " اعلمْ أن هذا موضع شريف، و قد نبّه عليه الخليل و سيبويه، و تلقّته الجماعة بالقبول له، و الاعتراف بصحته..

قال الخليل : كأنهم توهّموا في صوت الْجُنْدُب استطالة ومَدًّا ، فقال :

---

1 - سيبويه : الكتاب . ج2 : ص218 . بولاق .
2 - السيوطي : المزهر . دار إحياء الكتب العربية 1378 هـ 1958 م . ج 1 . ص 47

صر، و توهموا في صوت البازي تقطيعا فقالوا [illegible]

و قال سيبويه في المصادر التي جاءت على [illegible]) أنها تأتي للاضطراب و الحركة. نحو : النقزان، و الغليان، و الغثيان، فقابلوا بتوالي حركات المثال توالي حركات الأفعال . ووجدت أنا من هذا الحديث أشياء كثيرة على سمت ما حدّاه، و منهاج ما مثلاه ([1]) . وذلك أنك تجد المصادر الرباعية المضعّفة للتكرير، نحو : الزعزعة، والقلقلة، و الصلصلة، والقعقعة، و الصعصعة، و الجرجرة ، والقرقرة " . ([2])

و الحقيقة أن البحث اللغوي العربي تَمَلَّكَ ابن جني واستهواه، و أصبح السمعَ الذي يتحسس به الأصوات اللغوية و روحَه التي يستشعر بها المعاني الخفية التي تتجاوز ظاهر الصوت اللغوي إلى لطائفه و أسراره التي لا يحوط بها الوصف، فمما قاله : " فأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فباب عظيم واسع ، ونهج مُتْلَئِبٌّ عند عارفيه مأمومٌ، وذلك أنهم كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر بها عنها، فيعدلونها و يحتذون عليها، وذلك أكثر مما نقدره، و أضعاف ما نستشعره.

من ذلك قولهم : خَضِمَ ، و قَضِمَ، فالخَضْم لأكل الرُّطَب ، كالبَطيخ و القثاء ، و ما كان نحوهما من المأكول الرَّطب و القَضْم للصلب اليابس، نحو: قضَمَت الدابّةُ شعيرَها .. و نحو ذلك . وفي الخبر " قَدْ يُدْرَكُ الْخَضْمُ بالْقَضْمِ".. أي قد يُدرك الرخَاءُ بالشِّدَّة ، واللين بالشَّظف . وعليه قول أبي الدرداء : " يخضَمون و نَقْضَم، والموعد الله" . فاختاروا الخاء لرخاوتها للرطب، و القاف لصلابتها لليابس. حَذْوًا لمسموع الأصوات .. و من ذلك قولهم : النَّضْح للماء و نحوه، و النَّضْخُ أقوى من النَّضح، قال الله سبحانه

---

[1] ـ يعني بالتثنية الخليل و سيبويه بقوله : " ما حداه ومنهاج ما مثلاه ".

[2] ـ ابن جني : الخصائص . ج2 . ص 152 / 153

و تَعَالى : ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ . ([1]) فجعلوا الحاء ـ لرقتها ـ للماء الضعيف ، والخاء ـ لغلظها ـ لما هو أقوى منه.

ومن ذلك : القَدُّ طولا ، والقَطُّ عرضا ، وذلك أن الطّاء أحصر للصوت وأسرع قطعا له من الدال ، فجعلوا الطاء المناجزة لقطع العرض ، لقربه وسرعته ، والدال المماطلة لما طال من الأثر ، وهو قَطْعُه طولا " . ([2])

أنكر جلُّ العلماء اللغويين المعاصرين من غير العرب هذا الاتجاه ، لأنهم لم يطلعوا على خصائص اللغة العربية ونظامها الصوتي ، وتجانس الدلالات مع الألفاظ المنطوق بها ، وأدركه علماء البيان العربي فقالوا : " وقد يخفى سببه ـ أي الإعجاز ـ عند البحث ويظهر أثره في النفس حتى لا يلتبس على ذوي العلم والمعرفة به ، فقالوا : وقد يوجد لبعض الكلام عذوبة في السمع ، و هشاشة في النفس ، لا توجد مثلها لغيره منه ـ أي لغير القرآن ـ والكلامان معا فصيحان ، ثم لا يوقف لشيء من ذلك على علة" . ([3])

هذه العذوبة والهَشَاشَة يحسّ بها الإنسان . ولا يستطيع أن يعبِّر عنها باللغة المتواطئ عليها ، فيهتزّ لها طرباً ، ويشمئزّ أخرى كدراً.

---

[1] ـ الآية 66 ، من سورة الرحمن .

[2] ـ ابن جني الخصائص ، ج2 ، ص 157 ـ 158.

[3] ـ الخطابي : بيان إعجاز القرآن ، من رسالة في الإعجاز ، مطبوعة ضمن ثلاث رسائل ، دار المعارف بمصر ، دون تاريخ ، ص 22

II ـ كيف نشأت علوم اللغة العربية ؟

أ ـ قبل نُزول القرآن :

إن الباحثَ في أصول اللغة العربية، يعوزه العثور على الأطوار الأولى لنشأتها ؛ والمراحل التي مرت بها حتى اكتملت أُسُسُها، وتلاحمت مبانيها مع دلالاتها التي نجدها في هذا التراث الشعري المنسوب إلى العصر الجاهلي المتكامل في لغته وأوزانه ومعانيه وأغراضه المتنوعة : من مدح وهجاء، ونسيب ورثاء، وشجاعة وافتخار، ووصف للطبيعة والآثار، ومع هذا قيل : " ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلاَّ أقلُّه، ولو جاءكم وافرًا لجاءكم علمٌ وشعرٌ كثيرٌ " . ([1]) وذلك لأن العرب قبل نزول القرآن كانوا يعتمدون الحفظ حَكَمًا لهم. فلم يتركوا لنا كتابا مُدَوَّنا معلوما ؛ لا يرتقي الشّك و الرَّيْب إليه، لكن الذي ثبت لدى المتعاملين مع تاريخ آداب العربية أن هؤلاء العرب يملكون سليقة خطيرة بلغت مبلغا عظيما، و جبلّة ترسّخت فيهم، و تمكنت في نفوسهم بدليل أن القرآن لما تحداهم أن يَأْتُوا بمثله أو سورة منه، تلقوه بألسنة حداد، سجّل هذا القرآنُ . فقال :

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَ تُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴾. ([2])

و قَال أيضا : ﴿ وَ قَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ، مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إلاَّ جَدَلاً، بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ . ([3])

ولو لم يكن بالإمكان أن يَأتُوا بمثله ما تحداهم ، و لكنهم عجزوا واعترفوا ببيانه و أنه فوق طاقة البشر، رغم أنّهم يملكُونَ من الزّاد الفكْري

---

[1] ـ ابن سلام الجمحي : طبقات فحول الشعراء. سفرا. ص 25. مطبعة المدني. دون تاريخ.

[2] ـ الآية 97 من سورة مريم .

[3] ـ الآية 58 من سورة الزخرف .

و اللغوي ما يؤهلهم للتصدي له. فهذا ابن جنى يعزو للعرب كل فضيلة ، و أنهم كانوا في منتهى النضج و الإدراك ، و إنما دخل الشك في معارفهم " لأنهم ليست لهم أصول يراجعونها ولا قوانين يعتصمون بها و إنما تهجم بهم طباعهم على ما ينطقون به ". [1]

ب - بعد نزول القرآن :

* القرآن و لفظة اللغة :

لم ترد لفظة اللغة في القرآن الكريم، وإنما وردت فيه لفظة" اللسان" منعوتة أو مضافة .

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ لِسَانُ الذي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ، وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾. [2]

وقال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ . [3]

ولكن الذي شاع في المؤلفات العربية هي لفظة " لغة" .. وظهرت كتب تحت عناوين مختلفة تحمل مصطلح اللغة، مثل : " فقه اللغة " للثعالبي ، وآخر لصاحبي. وعرفها ابن جني بقوله :" حدُّها أنها أصوات يعبِّر بها كل قوم عن أغراضهم [4] ." وبين اشتقاقها وأنها مشتقة من اللغو. وتعزَّز هذا المصطلح بالمجامع اللغوية العربية التي تكونت في زماننا هذا فقالوا : مجمع اللغة العربية بمصر والمجمع اللغوي بسوريا . وانتهى الأمر في الجزائر " بالمجلس الأعلى للغة العربية " .

---

1 - ابن جنى : الخصائص . دار الكتب المصرية. 1376 هـ 1956 م. ج3 ، ص 273

2 - الآية 103 من سورة النحل.

3 - الآية 4 من سورة إبراهيم.

4 - ابن جني : الخصائص . ج1 . ص 33

وعليه فلا داعي للتعرض لآراء بعض المتنطعين الذين أنكروا عروبة لفظة " لغة " ، وقالوا : إنها دخيلة من لغة اليونان لوغوس ([1]) (logos) لكن الذي ظهر في محيط التأليف العربي هو هذه الإضافة " فقه اللغة " أو " علم اللغة " .

فلفظة علم لم تكن واردة في الجاهلية بهذا المفهوم العلمي الأكاديمي الذي ورد في القرآن.

قال الله تعالى : ﴿ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدنَّا عِلْمًا ﴾. ([2])

وقال أيضًا : ﴿ وَقَالَ الذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾. ([3])

هنا بدأ الفكر العربي يتلمّس الفروق بين" علم اليقين" و " حق اليقين". وانطلق العلماء العرب في التأليف العلمي واللغوي بذهنية عربية صرفة لا يشوبها أي أثر أجنبي دخيل . فالخليل بن أحمد الفراهيدي حدّد العلوم في أربعة، فقال: " العلوم أربعة : علم له أصل وفرع، وعلم له أصل ولا فرع له، وعلم له فرع ولا أصل له، وعلم لا أصل له ولا فرع . فأما الذي له أصل وفرع فالحساب، ليس بين أحد من المخلوقين فيه خلاف. وأما الذي له أصل ولا فرع له فالنجوم، ليس لها حقيقة يبلغ تأثيرها في العالم - يعني الأحكام والقضايا على الحقيقة - . وأما الذي له فرع ولا أصل له فالطب، أهله منه على التجارب إلى يوم القيامة. والعلم الذي لا أصل له ولا فرع فالجدل .

---

[1] - و من أراد التوسع في دحض هذا الرأي فليعد إلى كتابنا " ملامح علم الدلالة عند العرب" ص 07 . (رسالة دكتوراه الدولة).

[2] - الآيتين 62 - 63 من سورة الكهف .

[3] - الآية 41 من سورة النمل .

قاله أبو بكر الصولي : " يعني الجدل بالباطل " . ([1])

إن هذه العلومَ التي ذكرها الخليل منهــا ثلاثةٌ، تـدرس في إطـار العلـوم الصِّرْفَة، وهي : الرياضيات وعلم الأرصاد والنجوم والطــب. أمـا العلـم الرابـع فقد هوَّنَ مــن أمـره، و هـو الـعلم الذي لا أصل له و لا فرع، و لعله يقصد به علم " الاجتهاد" المبني على الاستنباط و اعتماد الفكر المحض الذي لا ينتهــي إلى حد.

هذا فكــر الخليـل بـن أحمـد (المتوفّـى 175 هــ)، و الـذي قـال عنـه القِفْطي: " نحوي لغوي عروضي، استنبط علم العروض وعِلَلَه مـا لم يسْتَخرجْهُ أحدٌ، و لم يسبقه إلى علمه سابق من العلماء كلهم. و قيــل إنــه دعـا بمكـة أن يُرْزَق علما لم يسبقه إليه أحدٌ، و لا يؤخذ إلا عليه، فرجع مـن حـجِّه. ففتـح عليه بالعروض" . ([2])

ولا شك أن دراسة هذه العلوم التي أتى على ذكرها كانت تدرس باللغة العربية ، و هو ما يؤكده ابن جنى الذي يقــول : " إنمـا هـو علـم منـتزع مـن استقراء هذه اللغة. فكل منْ فُرِقَ له عن علة صحيحة ، و طَريــقٍ نَهْجَــةٍ كـان خليل نفسه، و أبا عمرو فكْره .

إلا أننا ـ مع هـذا الذي رأينا و سوَّغنا مرتكبه ـ لا نسمح لــه بـالإقدام على مـخالفة الجماعة الـتي قد طال بحثها، و تقدم نـظرها، و تـوالت أواخرَ على أوائل، و أعجازا على كلاكل القوم الذين لا نـشك في أن الله ــ سبحانه و تقدست أسمـاؤه ـ قد هداهم لهـذا الـعلم الكريـم، و أراهـم وجه الحكمـة في الترجيب له والتعظيم ، وجعله ببركـاتهم ، وعلـى أيـدي طـاعاتهم، خادمـا للكتاب المنزَل، وكلام نبيّه المرسل. وعوْنا على فهمهما، ومعرفة مــا أُمِـرَ بـه. أو نُهِيَ عنه الثقلان منهما، إلا بعد أن يناهضـه إتقانـا، ويثابتـه عرفانـا، ولا

---

[1] ـ القفطي : إنباه الرواة على أنباه النحاة . مطبعة دار الكتب المصرية 1369 هـ/ 1950 م. ج1 . ص 346 / 347.

[2] ـ المصدر نفسه . ص 342

يُخْلِد إلى سانح خاطره، ولا إلى نزوة من نزوات تفكّره. فإذا هو حذا على هذا المثال، وباشر بإنعام تصفّحه أحناء الحال، أمضى الرأي فيما يريه الله منه غير مُعَاز [1] . ولا غاضّ من السلف - رحمهم الله - في شيء منه. فإنه إذا فعل ذلك سُدِّد رأيهُ، و شُيِّعَ خاطرُه، و كان بالصّواب مَئِنة، و من التوفيق مَظِنّة.

و قد قال أبو عثمان عَمرو بن بحر الجاحظ : " ما على الناس شيء أضر من قولهم : ما ترك الأول للآخر شيئا " . و قال أبو عثمان المازني : " و إذا قال العالم قوْلا متقدّما فللمتعلِّم الاقتداءُ به و الانتصارُ له، والاحتجاجُ لخلافه إن وَجَد إلى ذلك سبيلا " . [2]

إن المنهج العلمي المتّبع في علم اللغة العربية المنضبط بالاستقراء والتحرّي و التتبّع لمجاري كلام العرب من أفواه الأعراب الخلّص، و من القرآن الكريم، و كلام الرسول (ﷺ) والتابعين أصفياء اللغة يجب أن يبقى هذا النهج منفتحا على كل من رأى علة صحيحة يعتل بها، أو رأيا صائبا يحتج به ليسد به ثَغْرَة أو خللاً رأى أنّهُمَا في حاجة إلى سِدَاد أو تخياط . لأنه ما أهلك الناس إلا قولُهم : " ما ترك الأول للآخر شيئا" . فسدُّوا باب الاجتهاد بهذه المقولة، و ما دَرَوْا أن هذا التيارَ المتدفق على أفواه البشر لا يمكن غلقه أبدا، إذِ الأفواه تدفع، و الآذان تسمع، و لا رادَّ لهذين النّبعين : أحدهما ينفث و الآخر يبحث، و اصطلحا على تسميتهما بالْمُرْسِل والْمُرْسَل إليه، أو الملقي و المتلقي؛ فلا يسطيع المرء أن يسدَّ الأسماع أو يكمِّم الأفواه أو يعطِّل العقلَ الذي يزن الصائبَ من الخائبِ . و قديما قال أبو تمام الطائي ساخرا من هؤلاء الذين قالوا : " لَيْسَ فِي الإمْكَانْ أَبْدَعُ مِمَّا كَانْ .. " .

يَقولُ منْ تَطرُقُ أسماعَه كَمْ تَرَكَ الأوّلُ للآخِرِ!

---

[1] - المعازّة : المغالبة .

[2] - ابن جني : الخصائص. ج1 . ص 189 ـ 190.

إنها (كم) الخبرية التي تدلّ على التكثير. " إلا أننا - مع هذا الذي رأينا و سوّغنا مرتكبه - لا نسمح له بالإقدام على مخالفة الجماعة التي قد طال بحثها، و تقدم نظرها، و توالت أواخر على أوائل، وأعجازا على كلاكل، و القوم الذين لا نشكّ في أن الله - سبحانه و تقدست أسماؤه - قد هداهم لهذا العلم الكريم، و أراهم وجه الحكمة في الترجيب له والتعظيم " .

إن هذا التحفظ ضروري حتى لا يصبح علماؤنا الأبرار عرضة للسخرية والاستهزاء ، و علمهم عرضة للتنكر و الازدراء، لأنهم أبْلَوا البلاء الحسن في خدمة اللغة العربية ، و اجتهدوا وما قصّروا، و أَبَوْا أن يغلقوا الباب على أنفسهم. فهذا الخليل بن أحمد يقول على اجتهاده في العلل التي يعتل بها. " فقيل له : أعَن العرب أخذتَها أم اخترعتَها من نفسك ؟ . فقال :

إن العرب نطقت على سَجيَّتِها و طِباعها، و عرفت مواقعَ كلامها، و قام في عقولها علله. وإن لم ينقل ذلك عنها، و اعتللت أنا بما عندي أنه علة لما عللته منه. فإن أكن أصبت العلة فهو الذي التمست، و إن تكن هنالك علة له فمثلي في ذلك مثل رجل حكيم دخل دارا محكمة البناء، عجيبة النظم والأقسام، و قد صحّت عنده حكمة بانيها، بالخبر الصادق أو بالبراهين الواضحة و الحُجَج اللائحة. فكلما وقف هذا الرجل في الدار على شيء منها قال :" إنما فعل هذا هكذا لعلة كذا وكذا، ولسبب كذا وكذا. فكل فكرة سنحت له و خطرت بباله محتملة لذلك. فجائز أن يكون الحكيم الباني للدار فعل ذلك للعلة التي ذكرها هذا الذي دخل الدار. و جائز أن يكون فعله لغير تلك العلة إلا أن ذلك مما ذكره هذا الرجل محتمل أن يكون علة لذلك. فإن سَنَح لغيري علة لما عللته من النحو هي أليق مما ذكرت بالمعلول فليأتِ بها " . [1]

---

[1] - الزجاجي : الإيضاح في عِلَل النحو . تح/ مازن المبارك . دار العروبة مصر. دون تاريخ. ص 65 – 66

و هنا لا بد من وقفة لنقول : لئن كان النقاد العرب و المهتمون بآداب العربية صرفوا اهتماماتهم إلى الحركة الأدبية، ولاحظوا ما طرأ على هذه الآداب من مذاهب نقدية قديمة وحديثة، وفرّقوا بين تاريخ الأدب و العمل الأدبي نفسه، فإن اللغة العربية كان حظها من هذا الجانب ضعيفا ، مع أنه أصابها ما أصاب الآداب من انكسارات و إحداثات. تنبه لها علماؤنا الأبرار قديما ، فقال أبو عَمرو بن العلاء : " ما لسان حمير و أقاصي اليمن (اليوم) بلساننا، ولا عربيتهم بعربيتنا. فكيف على عهد عاد وثمود مع تداعيه ووهيه". ([1]) فقوله" اليوم" ضبطٌ تامٌّ للعصر الذي يعيش فيه. و قال في موضع آخر : " و لكن العربية التي عنى محمد بن علي اللسان الذي نزل به القرآن، وما تكلّمت به العرب على عهد النبي(ﷺ) ، و تلك عربية أخرى غير كلامنا " . ([2])

إن هذه الأقوالَ صريحةٌ في تغير اللغة العربية و تغييرها من عهد إلى عهد، و من زمن إلى زمن . و على هذا فإن علوم اللغة العربية نشأت نشأة عفوية ثم تلاقت مع حضارات أمم كانت تتمتع برصيد لغوي و فلسفي كبيرين، فخضعت لقانوني التأثير و التأثر، تبعا لسنة الله، و لن تجد لسنة الله تبديلا. فتفاعلت مع هذا الوافد الدخيل من هذه الحضارات التي سادت ثم بادت . وما فقدت عبقريتها و خصائصها المتمكنة في الذهنية العربية . ولم تنغلق انغلاقا كليا ، يجعل منها لغة متحجرة ميتة لا تتفاعل مع الواقع المعيش، مما جعل الخوارزمي (المتوفَّى سنة ٣٨٣ هـ) يكتب لنا كتابا في تاريخ العلوم العربية، مبينا ما هو عربي أصيل، و ما هو معرب دخيل، فقال :" و لم أشتغل في التفريع المفرط، والاشتقاق البارد، ولا بإيراد الحجج

---

[1] - ابن سلاّم الجمحي : طبقات فحول الشعراء . السفر الأول . ص11

[2] - المرجع السابق نفسه . ص 10

و الشواهد، إذ أكثر هذه الأوضاع أسامي و ألقابا اخترعت، وألفاظا من كلام العجم أعْرِبَتْ . و سمّيتُ هذا الكتاب "مفاتيح العلوم". و جعلته مقالتين (إحداهما) لعلوم الشريعة و ما يقترن بها من العلوم العربية، و (الثانية) لعلوم العجم من اليونانيين و غيرهم من الأمم، و بالله التوفيق و المعونة و المنة، و منه التسديد و العصمة " . [1]

و اللافت للنظر أن هذا العالم بتقسيمه العلوم إلى قسمين نلمس أن هذا التقسيم هو السائد في عصرنا هذا، عصر العولمة و الأنترنيت . فالقسم الأول هو ما يسمى بالعلوم الإنسانية بمعناها الواسع. و يشمل ستة أبواب و اثنين و خمسين فصلا. و هذه الأبواب هي الفقه، وفيه أحد عشر فصلا، وعلم الكلام و يحتوي سبعة فصول. و علم النحو؛ وفيه اثنا عشر فصلا، و علم الكتابة و الإنشاء، و فيه ثمانية فصول. و علم الشعر و العروض؛ و فيه خمسة فصول، و علم الأخبار و السير؛ و فيه تسعة فصول .

أما القسم الثاني فهو ما يطلق عليه مصطلح العلوم الدقيقة، و يشتمل على تسعة أبواب و خمسين فصلا.

و هذه الأبواب هي كما صنفها الخوارزمي : علم الفلسفة و فيه ثلاثة فصول، وعلم المنطق و فيه تسعة فصول، وعلم الطب و فيه ثمانية فصول، وعلم المنطق و فيه تسعة فصول، وعلم الرياضيات (العدد) و فيه خمسة فصول، وعلم الهندسة و فيه أربعة فصول، وعلم النجوم و فيه أربعة فصول، و علم الموسيقى و الفنّ و فيه ثلاثة فصول، و علم الحيل و فيه فصلان، و علم الكيمياء، و فيه ثلاثة فصول .

إن الباحث المنْصِف الموضوعي المجرد من كل نزعة عرقية أو حضارية

---

[1] الخوارزمي : مفاتيح العلوم . دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان ـ د.ت . ص4

ليجد نفسه مضطرا أن يعترف بأن اللغةَ التي وسعت هذه العلوم الإنسانية و التكنولوجية قديما ليست قاصرة على استيعاب هذه المخترعات الحديثة ما دامت أسامي و ألفاظا عربية أو معربة . فلو أخذنا على سبيل المثال " الباب الثالث " و هو الطب لوجدنا فصوله الثمانية هي على التوالي :

- الفصل الأول في التشريح.
- الفصل الثاني في ذكر الأمراض و الأدواء.
- الفصل الثالث في الأغذية.
- الفصل الرابع في الأدوية المفردة.
- الفصل الخامس في أدوية مفردة مشتبهة الأسماء.
- الفصل السادس في الأدوية المركبة.
- الفصل السابع في أوزان الأطباء و مكاييلهم.
- الفصل الثامن في النوادر.

هذا الفصل الأخير يوحي بالنوادر الأدبية. و هاك نموذج منه " الأمزجة تسعة، وهي : المعتدل والحار و البارد، و الرطب، و اليابس، و الحار الرطب، و الحار اليابس، و البارد الرطب، والبارد اليابس" . ([1])

و يأخذ في تحليلها تحليلا طبيا و يبين الأخطار التي تنجم عن تناول الحار و البارد . و هنا تذكرت أن الأطباء ينهون زبائنهم عن أكل الحار و تناول الدخان لما يحدثانه من آلام في المعدة . ولا شكّ أنها مأخوذة من هذه التعاليم الطبية المكتسبة من التجارب المتلاحقة . وقد سبق لنا أن عرفنا في تقاسيم العلوم عند الخليل بن أحمد أن علم الطبّ لا أصل له ولا فرع، لأن أصحابه دائما في تجارب متلاحقة.

[1]- الخوارزمي : مفاتيح العلوم . ص 106

III ـ اللغة العربية و روافد ترقيتها و تطوّرها :

رصدنا تحت هذا العنوان الكبير مرحلتين، إحداهما : طرّأنا العلماءُ العربُ القدامى . وتنبهوا إليها، وخصوها بالدراسة، حيث لاحظوا الحركة الدائبة للغة العربية، و أنها معطى اجتماعي ينمو بنُموّ الحضارات و تطور المكتشفات، و تهْمُد بهمودهما، فتساءلوا : " أفي وقت واحد وضعت أم تلاحق تابعٌ منها بفارط ؟

وكيف تصرف الحال، و على أي الأمرين كان ابتداؤها، فإنها لا بد أن يكون وقع في أول الأمر بعضُها ثم احتيج فيما بعد إلى الزيادة عليه. لحضور الداعي إليه. فزيد فيها شيئا فشيئا، إلا أنه على قياس ما كان سبق منها في حروفه. و تأليفه، و إعرابه المبين عن معانيه، لايخالف الثاني الأولَ، ولا الثالث الثاني، كذلك متصلا متتابعا، و ليس أحد من العرب الفصحاء إلاّ يقول : إنه يحكي كلام أبيه و سلفه، يتوارثونه آخرٌ عن أول، و تابعٌ عن متّبِع" . (1)

هذا التوجّه العلمي اللغوي المنبنّي على أساس" ما قيس على كلام العرب فهو من كلامهم. و ضعناه تحت عنوان : " مفهوم التطوّر اللغويّ عند العلماء العرب الأصلاء ، و دورُه في إثراء العربية " .

والمرحلة الثانية قصدنا بها المجامع اللغوية العربية الحديثة التي أنشأها العلماء العرب المعاصرون لنفس الحاجة التي قصدها العلماء الأوائل غير أن أسلوب العمل مختلف، و مناهجه متطورة وواعية ؛ يقول الدكتور إبراهيم مدكور ـ رحمه الله ـ الأمين العام لمجمع اللغة العربية بالقاهرة :

" إنه يجدر بنا أن ننأى عن الألفاظ الغريبة و الثقيلة النطق، و أن نتحرى في مستحدثات الحضارة خاصة الاستعمال الشائع في البلاد العربية عامة. و يلاحظ أنه لا مناص من التعريب، و بخاصة في تلك المصطلحات التي

---

1 ـ ابن جني : الخصائص . ج2 ، ص 28 / 29

أصبحت شبه عالمية، أو التي استمدت من أصول يونانية أو إغريقية " . (1)

ما أشبه هذا الكلام بما جاء عند الخوارزمي الذي يقول : " وقد جمعت في هذا - يعني كتاب مفاتيح العلوم - أكثر ما يحتاج إليه من هذا النوع متحريا للإيجاز و الاختصار، و متوقيا للتطويل و الإكثار، و ألغيت ... ما هو غامض غريب، لا يكاد يخلو إذا ذُكِرَ في الكتب من شرح طويل و تفسير كثير... إذ كان أكثر هذه الأوضاع أسامي و ألقابا اخترعت، و ألفاظا من كلام العجم أُعْرِبت " . (2)

و قد اخترنا لهذه المرحلة عنوانا هو : " دور المجامع اللغوية المعاصرة في ترقية اللغة العربية " .

و في هذين الرافدين تتجلى لنا عبقرية العربية، و أنها قادرة على استيعاب العلوم مهما كان نوعها، وأنها تملك مرونة و صلابة في آن واحد، مرونة تظهر في قدرتها على الاشتقاق و النحت و التوليد. وصلابة في تمنعها من أن تذوب في لغات الآخرين، لما لها من خصائص في ألفبائيتها و كَلِمِها و تآليفها ودلالتها الموحيّة بمعانيها.

---

1 - إبراهيم مدكور : البحوث و المحاضرات (مؤتمر الدورة 30) القاهرة .1384هـ / 1965 م.

2 - الخوارزمي : مفاتيح العلوم . ص04.

أ ـ مفهوم التطور اللغوي عند العلماء العرب الأوائل و دوره في إثراء اللغة العربية وترقيتها .

• تمهيد :

ـ ماذا نعني بتطوّر اللغة العربيّة و ترقيتها ؟

إن ألفاظ اللغة أي لغة كانت يعتريها ما يعتري الكائن الحي من تغير وتغيير و زيادة و نقصان، و مرض و صحة. و حياة و موت، رغم أن ليس لها" ذات ولا وزن ولا لون، و هي مسموعة بالآذان. موصوفة بالألسُن غير منظور إليها " . ([1])

و لكن دلالاتها منها المتغيرة والثابتة، فالدلالة عرضة للاهتزاز، و الحذف و البتر و الموت و الحياة، لما يطرأ عليها من الاستعمالات المختلفة للمجتمعات المتنامية و المتباينة، و الخاضعة للحاجات المتولدة لإشباع أغراض البشر، و أعرافهم و معاملاتهم، و هواجسهم الدينية و الدنيوية غير المتناهية، فهي ظاهرة اجتماعية تزدهر بإزهار فنون القول، و تُغَذّى بفصل الخطاب. لكنها لا تسير على وتيرة واحدة في التطوّر مثل ما يخضع له الكائن الحي الذي يبدأ ضعيفا، ثم يقوَى ثم يشيخ و يهْرم. فالتطور الدلالي تحكمي، و ليس من الضروري أن يسير على خط النمو و الارتقاء، بل على النقيض من ذلك، فقد تكون دلالة لفظ ما في أعلى عليين . و في أعلى مستوى من الدلالة و أرقاها، ثم يصيبها التحول و التغير إلى أسوأ الدلالات. ولنا مثلٌ فيما نقول في لفظ « الجرثومة و الأرومة » .

فالجرثومة في وضعها اللغوي تدل على أصل الشيء جاء في فقه اللغة للثعالبي :" الجرثومة و الأرومة أصل النسب" . ([2]) فاللفظتان تغيرت دلالتهما.

---

[1] ـ أبو حاتم الرازي : كتاب الزينة في الألفاظ الإسلامية العربية القاهرة 1957 . ج1. ص68

[2] ـ الثعالبي : فقه اللغة ، منشورات مكتبة الحياة ـ بيروت . د.تا . ص63

فإحداهما تحولت من دلالتها الأساسية التي تعني الأصل والنسب إلى العاهة المزمنة، و غَدت مصطلحا طبيا يدل على « الميكروب Microbe » والأخرى تنوسيت و فقدت إشعاعها الدلالي و نامت في غضون النصوص العربية الأولى، و قلّ استعمالها في الإنشاءات المعاصرة .

و من الألفاظ التي اكتسبت دلالة التوسع و الارتقاء لفظ (المسرح) الذي كان يعني مرعى الإبل و الغنم و الخيل و البغال و الحمير، و غيرها من الأنعام، لكن دلالتها شاعت و ارتفعت إلى علم ذي مستوى عال، له قوانينه الخاصة، و مناهجه الخاصة، و اختص به أقوام من الكتاب المختصين . وما مصطلح " الفنان" بأقلّ تطوّرا من مصطلح" المسرح" ، فقد كان يطلق على الحمار الوحشي لتفنّنه في العَدْو؛ لكن دلالته المتداولة اليوم تعني صاحب الموهبة الفنية؛ كالشاعر والكاتب والموسيقي والمصوِّر والممثّل، وغير هؤلاء مما يطلق عليه مصطلح" المبدِع" .

هذه هي إرادتنا من تطور اللغة العربية إنما نعني بها التغير و التحول من أعلى إلى أسفل أو من أسفل إلى أعلى، أو من الانكماش إلى الازدهار أو العكس و بالاختصار التحوّل من حال إلى حال، أو الثبات والدوام .

• الإحْسَاس الفِطْري :

هل أدرك العرب هذا التطور و التحول في دلالات الألفاظ ؟ الحقيقة أن العرب كانوا يتوفرون على حِسّ لغوي خارق للعادة، به يلاحظون الإحداثات التي تحدث في كلمهم . فقد روت لنا كتب السيرة و تفاسير القرآن أن العرب لم يتقبلوا القرآن بسهولة، فراحوا يترصدون أساليبه، وألطف ما جاء في هذا الصدد تلك القصة التي تلقفها الرواة والمفسرون و البيانيون، وذلك أن قريشا اجتمعت في دار الندوة ؛ فقال لهم الوليد بن المغيرة المخزومي إنكم ذوو أحساب و ذوو أحلام ، وأن العرب يأتونكم فينطلقون من عندكم على أمر

مختلف. فأجمعوا أمركم على شيء واحد، ما تقولون في هذا الرجل ؟ قالوا: نقول إنه شاعر فَعَبَسَ عندها، و قال : قد سمعنا الشعر فما يشبه قوله الشعر. فقالوا : نقول : إنه كاهن، قال : إذا تأتونه فلا تجدونه يحدّث بما يحدث به الكهنة. قالوا : نقول : إنه مجنون، قال : إذا تأتونه فلا تجدونه مجنونا. قالوا : نقول : إنه ساحر، قال : وما الساحر ؟ فقالوا : بشر يحببون بين المتباغضين، و يبغضون بين المتحابين، قال فهو ساحر . فخرجوا، فكان لا يلقى أحَدٌ منهم النبيّ (ﷺ) إلا قال : يا سَاحِر، يَا سَاحِر.

اشتد عليه ذلك، فأنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمدثِّرُ ﴾.. إلى قوله : ﴿ قَوْل الْبَشَر ﴾. (1)

هذا الإحساس الساذج فيه دلالة على شعورهم بتحول مجاري الألفاظ و تغيرها، و قد خالفت أقوال الشعراء و الكهنة، و أنّ دلالات الألفاظ قد تحولت و لم يجدوا لها نظيرا في الكلام المتعارف لديهم، سوى أن لها آثارا تشبه آثار السحر في المسحور، و كانوا من قبل على جانب عظيم من دقة الملاحظة، جاء في الموازنة للآمدي أن طرفة بن العبد نقد المسيّب عندما قال :

" وَ قَدْ أَتَنَاسَى الْهَمَّ عِنْدَ احْتِضَارِهِ   بِنَاجٍ عَلَيْهِ الصيْعَرِيَّة مكدمِ "

و قالوا : الصيعرية سمة للنوق لا للفحول ، فسمعه طرفةُ بن العبد ، و هو صَبيّ، فقال : " اسْتَنْوَقَ الْجَمَل" ، و ضَحِكَ منه ، فذهَبَ مَثلا .

و يقال : إن المسيّب قال له : " أَخرِجِ لسانَك يا فَتى" فأخرجه، فقال : " ويل لهذا من هذا، يعني رأسَه من لسانِه " . (2)

وقد أدرك العلماء العرب هذا التطور جيدًا . فهذا ابن سلاّم الجُمَحي يقول : " ولكن العربية التي عنى محمد بن علي هي اللسان الذي نزل به

---

1 - الطبرُسي : مجمع البيان في تفسيرالقرآن م6. دار مكتبةالحياة بيروت .د.ت .ج29 .ص 109

2 - الآمدي : الموازنة ، دار المعارف بمصر 1380 هـ / 1961م . ج1 ، ص 40

القرآن وما تكلمت به العرب على عهد النبي(ﷺ) ، وتلك عربية أخرى غير كلامنا هذا . وقال أبو عمرو بن العلاء في ذلك : " ما لسان حِمْيَر وأقاصي اليمن اليوم بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا ، فكيف بما على عهد عاد وثمود مع تداعيه و وهيه ؟ " . [1]

ويذكر الخطابي نفس كلام أبي عمرو بن العلاء ، ثم يقول : " وقد زعم بعضهم أن كلام العرب كان باقيا على نَجْره وعلى سِنْخ طبعه إلى أيام بني أمية ، ثم دخله الخلل فاختل منه أشياء " . [2]

و أما ابن جني وهو الحصيف الرأي ، الثاقب الذهن ، المحقق للأقوال فقد جاء عنه " قيل قد يمكن أن يكون ذلك وقع إليه من لغة قديمة قد طال عهدها ، و عفا رسمها و تأبدت معالمها ...

و بعد فلسنا نشك في بُعْدِ لغة حمير و نحوها عن لغة ابن نزار ومضر و ربيعة ، فقد يمكن أن يقع شيء من تلك اللغة في لغتهم ، فيُساء الظنُّ فيه بمَن سمِع منه ، و إنما هو منقول من تلك اللغة ". [3]

و جاء عن حماد الراوية قال : أمر النعمان فنسخت له أشعار العرب في الطنوج ، قال : و هي الكراريس ، ثم دفنها في قصره ، فلما كان المختار بن أبي عبيد قيل له : إن تحتَ القصْر كنْزا ، فاحْتَفَرَهُ ، فأخرجَ تلك الأشعارَ. فمن ثَمَّ أهل الكوفة أعلم بالشعر من أهل البصرة . و هذا و نحوه مما يدلك على تنقّل الأحوال بهذه اللغة ، و اعتراض الأحوال عليها ، و كثرة تَغَوُّلِها و تَغَيُّرها " . [4]

1- ابن سلام : طبقات فحول الشعراء . ج1 . ص 10 /11 . (بتصرف) .
2- الخطابي : رسالة في بيان إعجاز القرآن . ضمن ثلاث رسائل . ص42
3- ابن جني : الخصائص. ج1 . ص 386 . (بتصرف في النص) .
4- المرجع السابق نفسه. 387

• مِنَ الإحْسَاس الفِطْريّ إلى الإدراكِ الكُلّيّ :

لقد تحقق الافتراض الذي افترضناهُ بأننا نعني بالتطور التغير والتحول. و بات ثابتا من النصوص و الشواهد التي أثبتناها أن العلماء العرب أدركوا التحول و التغير و الزيادة و الحذف في بعض الكلم، و هو تطوُّرٌ ناتجٌ عن كثرة الاستعمال أو قلته، و يوظفون مفردات تدل دلالة قاطعة على أن للزمن دورا كبيرا في تطور الدلالات و تغيرها" . تلك عربية أخرى غير كلامنا هذا " . " ما لسان حمير اليوم بلساننا " . إنما جاء هذا على لغتهم الأولى قبل أن يدخلها التغيير" . وهذا ونحوه مما يدلّك على تنقّل الأحوال بهذه اللغة، واعتراض الأحوال عليها و كثرة تَغَوّلِهَا و تَغَيُّرهَا .. " .

هذا الضبط لم يكن وليد الإحساس و الصدفة إنما كان ناجما عن معاناة و ممارسة و تعمق في الدراسة العلمية، التي أجهدوا أنفسهم فيها، حتى انتهى بهم الأمر إلى التأليف المنهجي المنظم المتمثل في كتب الأضداد و المترادفات و المشترك و الاشتقاق، و ميزوا بين مفرداته المتباينة، و ما يطرأ عليها من تطور دلالي، دعت الحاجة إليه، فغذاه التداول والاستعمال . و تمرّد بعضه عن الوضع اللغوي، و اكتسب دلالة جديدة مكنته من الشيوع و الذيوع. و قد أصاب هذا التطورُ الدلالي مجملَ العربية، إلا أنّه كان في بعض المناحي أظهر من بعض. لحاجة الناس إليه في مخاطباتهم اليومية، و معاملاتهم العرفية و العادية و الشرعية . و رغم هذا التطور و الإدراك الكلي له، فإننا لا نعثر إلا على نتف من الأقوال مدسوسة في طيّات الكتب و المعاجم، و كأن العربية حدثت في عصر واحد، و دلالتها ثابتة قارة في خط ثابت، فما وجدنا مؤلفا قائما بذاته، يرصد لنا حركات التطور الدلالي منذ الجاهلية ثم الإسلام ثم العصور المتتالية، بيد أن جهودهم العلمية كانت في غاية الاحتياط والاستنباط. فقد التمسوا أبوابا كثيرة ركّزوا عليها واعتبروها بمثابة المنارات

الهادية إلى سبل أسُس البحْث العلمي اللغوي، واتخذوا مقاييس وضوابط اعتمدوها فكانت فضاء رحبا لنموّ العربية وتطوّرها؛ كالأشباه والنظائر والقياس والميزان الصرفي، والنحت والأخذ والاشتقاق والاستعمال والاطراد والشذوذ، والمولَد والمعرّب، والأصيل والاصطلاح .

كل هذه الآليات ساعدت على نموّ العربية وتوسّعها في مختلف الحقول الدلالية المتنامية في بيئتهم عصرئذ . فألحقوا الشبيه بالشبيه، وحملوا الفرع على الأصل، وقاسوا المجهول على المعلوم، ولم يتخلّفوا أو يتوقّفوا، وإنما كانوا يجدّون ويجتهدون وفق السليقة العربية المتمكّنة في وجدانهم وطبيعتهم الأصلية أو المكتسبة بطريقة الممارسة والمخالطة، فكانوا عربا بالنشأة والتكوين. قال جار الله محمود بن عمر الزمخشريّ : " اللهَ أحمد على أن جعلني من علماء العربية، وجبلني على الغضب للعرب والعصبية، وأبى لي أن أنفرد عن صميم أنصارهم وأمتاز، وأنضوي إلى لفيف الشعوبية وانحاز " . ([1])

هذه الروافد والينابيع رفدت العربية ، وأفعمتها غناء ورخاء، وجعلت علماءها لا يتحرّجون من اختراع الأسماء للمخترعات التي جدّت في محيطهم الدنيوي، فما كادهم مصطلح وما عجزوا عنه قطّ. بيد أن هذا النشاط الفكري اللغويّ اعتراه أمر غريب في العصور المتعاقبة، حيث توقّف العطاء، وتعطّل الفكر ، وانحسَر الاجتهاد اللّغويّ إلى الوراء يلوكُ ما قال الأوائل دون وعي ولا فهْم ، وسَادَت المقولة : " ليس في الإمكان أبدعُ ممّا كَان" .. ومن هنا فإننا سنقتصر على المناحي التالية :

I - القيَاس اللغويّ .

II - الاشتقاق .

III - الأخْذ .

---

[1] - الزمخشري : المفصّل في علم العربية. مكتبة الخانقي مصر. غرة سنة 1323 هـ . ص 02

IV ـ الترجمة .

V ـ المصطلح .

VI ـ المعرّب .

VII ـ المولّد .

VIII ـ المجامع اللغوية الحديثة .

I ـ القيَاس اللغويّ :

تنبّه علماء اللغة العربيــة إلى أن الإحاطـة بمفـردات اللغـة العربيـة وتراكيبها وأداءاتها المختلفة مستحيل سماعها كلها ؛ وذلـك لأنهـا لا تخضـع لقائمة مغلقة ومنتهيّة، إذ الأفواه تدفع والآذان تسمع، فتتوالد الألفـاظ بكيفيّـة تحكّمية غريبة، يعجــز الفرد عـن تعليلهـا واسـتيعابها ، فعمـد علمـاء اللغـة العربية إلى مقياس أطلقوا عليه مصطلح " القيـاس" مقـابل " السـماع" ، وهـو رافد هامّ لنموّ اللغات وتطوّرها ، إذ به يلحق الشبيه بالشبيه، والنظير بالنظـير بسماحة وعفويّة لا نظير لهما .

وهذا مثال من القياس العفــويّ نـورده كمـا أثبتـه ابـن جـني في مؤلّفـه العلمي " الخصائص" ، قال حاكيا : " حدثنـا الخليـل بـن أسـد النوشـجانيّ قال : قرأت على الأصمعيّ هذه الأرجوزة للعَجّاج :

يَا صَاحِ هَل تَعرفُ رَسْماً مُكْرَسَا ؟

فلما بلغت : تَــقَاعَسَ الْعِزُّ بِنَا فَاقْـعَنْسَـسَا

قال لي الأصمعيّ : قال لي الخليل : أنشدنا رجلٌ :

تَرَافع العِزُّ فَارْفَنْعَعَا.

فقلت : هذا لا يكون . فقال : كيف جاز للعجّاج أن يقول :

تَقَاعَسَ الْعِزُّ بنَا فَاقْعَنْسَسَا ؟ " . ([1])

هذا القياس الساذج البسيط المتطوّر من رجل بدويّ لا يعرف عن القياس اللغويّ شيئا هو الذي طوّره اللغويّون فقالوا في حدّه : " القياس في اللغة عبارة عن التقدير ، يقال : قِستت النعلَ بالنعْل إذا قدرته و سويته ، و هو عبارة عن رد الشيء إلى نظيره " . ([2]) تعريف مضبوط ، بيد أن القياس تقاسمه الفقهاء و الأصوليون و المناطقة. و ما نقصده هو القياس اللغوي ، و الذي وصفه ابن جني " بأنه موضع شريف ، و أكثر الناس يضعف عن احتماله... " .. و قد نص أبو عثمان المازني عليه ، فقال : " ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب ، ألا ترى أنك لم تسمع أنت ولا غيرك كل اسم فاعل ومفعول ، و إنما سمعت البعض فقست عليه غيره ، فإذا سمعت : قام زيد ، أجزت ظرف بشر ، وكرم خالد .

قال أبو علي : إذا قلت : " طَابَ الخَشْكُنَانُ " . فهذا من كلام العرب ، بإعرابك إيّاه قد أدخلته كلام العرب " . ([3])

و هنا يدخل معنا في القياس : الحمل و الأشباه و الأنظار والأمثال ، و نتخلص من عقدة التقليد ، و " قُلْ ولا تَقُلْ" ، و " لَيْسَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ" ، إلى غير ذلك فنفتح باب القياس اللغوي على مصراعيه " و من ذلك ما روي عن النبي(ﷺ) أن قومًا من العرب أتوه فقال لهم : من أنتم ؟ . فقالوا : نحن بنو غَيّان ، فقال : بل أنتم بنو رُشْدان . فهل هذا إلا كقول أهل الصناعة :

---

[1] - ابن جني : الخصائص . ج1، ص 361 ـ 362

[2] - الجرجاني الشريف علي بن محمد : التعريفات. دار الكتب العلمية بيروت . لبنان 1416 هـ / 1995م . ص181.

[3] - ابن جني : الخصائص. ج1 . ص 357.

إن الألف و النون زائدتان، و إن كان (ﷺ) لم يتفوّه بذلك . غير أن اشتقاقه إيّاه من الغيّ بمنزلة قولنا نحن : إن الألف والنون فيه زائدتان . وهذا واضح " . ([1])

• حاجَة علماء أصُول الفقه للقياس :

إن اللسان العربي ظلّ منبعا صافيا يتدفّق عطاء، يغرف منه الفقهاء والقرّاء والنحاة والأصوليون ما يحتاجون إليه، إذ كل واحد يأخذ ما يسدّ به غرضه. ومن هنا كانت علوم العربية في أصل نشأتها متكاملة فيما بينها، فلا غرابة أن يكون علماء الأصول سبّاقين إلى القياس أكثر من غيرهم لاحتياجهم إليه في أقيسة الأحكام بعضها من بعض . وقد برع في هذا الاتجاه محمد بن إدريس الشافعي (150 ـ 204 هـ) في كتابيه " الرسالة" ، وكتاب " الأم" لاهتمامه بعلم اللسان العربي . واعتباره الأساس المركزي للدراسات الفقهية واللغوية ، وغيرهما من العلوم الإسلامية ، فقال : " وإنما بدأت ([2]) بما وصفت من أ ن القرآن نزل بلسان العرب دون غيره؛ لأنه لا يَعْلَمُ من إيضاح جُمَلِ علم الكتاب أَحَدٌ جَهِلَ سَعَةَ لسان العرب، وكثرة وجوهه، وجماع معانيه وتفرّقها. ومن علمه انتفت عنه الشُّبَه التي دخلت على من جهل لسانها" . ([3])

يلاحظ على الشافعي بصفة عامّة أنه يوظّف مصطلح " اللسان" بدل اللغة اقتداء بالنصوص القرآنية التي لم يرد فيها لفظ " اللغة" قطّ . فاكتسب

---

[1] - المرجع السابق نفسه . ص 250

[2] - بدأت : يعني أنه بدأ كتابه الرسالة التي هي في أصول الفقه بتعريف " اللسان العربي" لأنه من المستحيل أن يستنبط الأحكام الفقهية من جهل لسان العرب الذي نزل به القرآن لسعته وتنوّع وجوهه واتحادها أحيانا.

[3] - الشافعي : الرسالة . تحقيق أحمد محمد شاكر. مصر 1309 هـ . ص 50

صفة العالم اللساني المؤسس لعلم اللسان العربي ، ولعلّه أول من وظّف مصطلح " القياس" في اللغة وتوسّع فيه ، وفصله عن الأخبار المتواترة نصا من الكتاب والسنة . ففي حوار شيّق يفترض فيه الشافعي منكرا عليه القياس اللغوي ، فيقول :

" ـ فَمِن أين قلتَ : يقال بالقياس فيما لا كِتَابَ فِيه ولا سنّةَ ولا إجْمَاعَ ؟ . أَفَالْقِياسُ [1] نَصٌّ خَبَرٍ لازِمٍ ؟

ـ قلتُ : لو كانَ القياسُ نصّ كتابٍ أو سنَةٍ قيلَ في كلّ مَكان : نصّ كتَابٍ " هَذا حكمُ الله" . وفي كلٍّ مَا كان نصّ السنةِ " هَذا حُكمُ رسولِ الله" ، ولم نقل له قِياس " .

ـ قال : فما القياس ؟ أهو الاجتهاد ؟ أم هما مفترقان ؟

ـ قلت : هذا أسمان لمعنى واحد.

ـ قلت : فما جماعهما ؟

ـ قلت : كل ما نزل بمسلم ففيه حُكْمٌ لازمٌ ، أو على سبيل الحقّ فيه دلالة موجودة، وعليه إذا كان فيه بعينه حكم (يجب) اتباعه ، وإذا لم يكن فيه بعينه طُلِب الدلالة على سبيل الحقّ فيه بالاجتهاد، والاجتهاد القياس" . [2]

ليس القياس عند الشافعي مهيعا مباحا لكلّ من هبّ ودبّ ، أو قلّد وانتسب، وإنما هو منهج لا يطرقه إلا مَن ملك آلة القياس العلمية . فهو يقول: " ولا يقيس إلا من جمع الآلة التي له القياس بها ، وهي العلم بأحكام كتاب الله : فرضه، وأدبه ، وناسخه ومنسوخه ، وعامّه وخاصّه ، وإرشاده.

---

[1] ـ تعليق شاكر : هذا استفهام واضح، ومعناه بيّنٌ. ولكن الناسخين لم يفهموه فلم يحسنوا قراءته.

[2] ـ المرجع السابق نفسه : ص 476 ـ 477

ويقول أيضًا : " و لا يكون لأحد أن يقيس حتى يكون عالما بما مضى قبله من السنن، وأقاويل السلف، وإجماع الناس، واختلافهم، ولسان العرب.

ويستطردُ قائلا : " وكذلك لو كان حافظا مقصّر العقل، أو مقصّرا عن علم لسان العرب، لم يكن له أن يقيس، من قِبَل نقص عقله عن الآلة التي يجوز بها القياس " . ([1])

إن هذه العفوية في القياس الناجمة عن السليقة العربية والواعية للآلة التي يستنبط بها - يعني اللسان العربي - أدركها التكلّف وأصبح القياس له أركان أربعة :

1 - المقيس .

2 - المقيس عليه.

3 - العلّة.

4 - الحكم.

هكذا تعقّد القياس وتمنطق في قوالب أرسطو طاليسية، فسُدّ باب الاجتهاد الذي هو القياس في منظور الشافعي، ففقد اللسان العربي ليونته وسيولته التي هي " ما قيس على كلام العرب فهو من كلامهم " . وظل على هذا الوضع إلى أن استفاق العرب من غفلتهم في عصر النهضة، وكوّنوا المجامع اللغويّة فأعادوا للقياس دوره في تنمية اللسان العربي، فأباحوا القياس ([2])، ووسّعوا فيه ، كما سنرى بعدُ ، وفق طبيعة اللسان العربي.

هذا هو موقف علماء أصول الفقه ..

---

[1] - الشافعي : المرجع السابق نفسه . ص 509 - 510 - 511

[2] - صدر قرار " القياس" في ج 8 ، مؤتمر الدورة الثلاثين سنة 1964، بمجمع اللغة العربية بالقاهرة.

- **فماذا عن علماء النحو واللغة ؟ وما موقفهم من " القياس" ؟**

فلا ريب أن الهدف الذي يسعى إليه علماء الأصول من القياس يباين المسعى الذي يرمي إليه علماء اللسان العربي، أولئك يؤصّلون تشريع الأحكام الفقهية ، يعني المعاملات الاجتماعية التي تنشأ بسبب الخصومات بين الأفراد والجماعات في البيع و الشراء والزواج والطلاق والسلم والحرب وغيرها. وكلها تحتاج إلى قوانين تضبطها مستنبطة من القرآن الكريم الذي وصفه الله مرة " بحكم عربي"، فقال في سورة الرعد : ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾. ([1]) ومرة أخرى " بلسان عربي" مبين، فقال في سورة الشعراء : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ . ([2])

أما علماء اللسان العربي فإنهم يؤصّلون أصول العربية ومقاييسها ومجاريها. فكان القياس مرتبطا بنشأة علم النحو العربي . فهذا ابن سلاّم يقول عن أبي الأسود الدؤليّ (ت67 هـ) إنه " كان أول من أسس العربية، وفتح بابها، وأنهج سبيلها، ووضع قياسها" . ([3])

ويقول عن عبد الله بن أبي إسحاق الحضرميّ (ت117 هـ) إنه " كان أول من بعج النحو ، ومدّ القياسَ والعلل، وكان معه أبو عمرو بن العلاء، وبقي معه بقاء طويلا، وكان ابنُ أبي إسحاق أشدَّ تجريدا للقياس، وكان أبو عمرو أوسعَ علما بكلام العرب ولغاتها وغريبها " . ([4])

هذه أقوال وآراء حفظتها لنا كتب الطبقات والمعاجم، تمتاز بدقّة فائقة

---

[1] - الآية 37

[2] - الآية 37

[3] — ابن سلاّم الجُمحيّ : طبقات فحول الشعراء، مطبعة المدني القاهرة، السفر الأول، بدون تاريخ . ص 12

[4] - المرجع السابق نفسه . ص 14

تتطلّب من الدارسين لها ذهنية علميّة، فقول ابن سلاّم عن عبد الله بن أبي إسحاق الحضرميّ : " إنه أول من بعج النحو ومدّ القياس والعلل" ، وأنه أشدّ تجريدا من أبي عمرو بن العلاء الذي كان أوسع علما بكلام العرب ولغاتها دليل على تطوّر المصطلح اللغوي للدراسات اللسانية العربية . فمدّ القياس معناه بسطه وتوسّع فيه. فالقياس رافد خطير لترقية اللغة العربية وتنميّتها.

أما سيبويه فإنه يطلق على القياس مصطلح " النظير" الذي يجمع على " نظائر" . فيقول : " هذا باب نظائر : ضَرَبْتُهُ ضَرْبَةً، وَرَمَيْتُهُ رَمْيَةً" ." وهذا نظير ما ذكرنا من بنات الأربعة، وما ألحق ببنائها من بنات الثلاثة" . ([1])

لهذا كانت مصطلحاته: " الأشباه" ، و" النظائر" ، و " المجاري" ، و" المنازل" ، و" الأمثلة"، و " الأبنية" ... لأن كلام العرب واسع لا يستطيع فرد واحد أن يحيط به. فيقول الشافعي : " لأن لسان العرب أوسع الألسنة مذهبا، وأكثرها ألفاظا، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبيّ، ولكنه لا يذهب منه شيء على عامّتها، حتى لا يكون موجودا فيها من يعرفه.

والعلم به عند العرب كالعلم بالسّنة عند أهل الفقه، لا نعلم رجلا جمع السُّنَنَ، فلم يذهب منها عليه شيءٌ " . ([2])

وترتّب على هذا الاتجاه العلمي الذي يعتمد النظير والشبيه مُقَارَبَةً دلالية تربط بين اللفظ ومؤدّاه، أساسها" السماع" و " القياس" في جدلية علمية. فقالوا : إن مصادر الأفعال المزيدة، وأسماء الفاعلين والمفعولين فيها كلها سماعية . يعني أنك إذا عرفت نظيرا من هذه النظائر وصلت إلى باقي المشتقات بكل سهولة . قال عنها ابن جنّي : " وحكى لنا أبو علي عن ابن الأعرابي أظنّه قال : يُقال : دَرْهَمَت الْخُبَّازَى؛ أي صارت كالدراهم، فاشْتُقَ من الدرهم، وهو اسم أعجميّ. وحكى أبوزيد : رَجُلٌ مُدَرْهَمٌ، قال :

---

[1] - سيبويه . تحقيق عبد السلام محمد هارون . ج4 . ص 86 – 97

[2] - الشافعي : " الرسالة " . مرجع سابق . ص 42

ولم يقولوا منه : دُرْهِمَ . إلا أنه إذا جاء اسم المفعول فالفعل نفسُه حاصلٌ في الكفّ " . ( )[1]

أما الأفعال الثلاثيّة المجرّدة فمصادرها كلها سماعية ، ومع ذلك فقد ضبطوا مقاييس لها معتمدين المعنى والدلالة لتقريب ذلك على طالب علم اللسان العربي ، وهي مبسوطة في كتب النحو العربي ، يتدارسها الناس ، سابقا عن لاحق. مراعين في ذلك ما تواتر عن العرب لأنها " تؤثر من التجانس والتشابه ، وحمل الفرع على الأصل ، ما إذا ما تأملته عرفت منه قوّة عنايتها بهذا الشأن ، وأنه منها على أقوى بال" . ( )[2]

لقد تفطّن الخليل بن أحمد إلى أن اللغة أنظمة من البنى المشتملة على معان ودلالات ، فاخترع معيارا سمّاه " المستعمل" و " المهمل" ، فما أفاد معنى اعتبره ، وما لم يفد ألغاه ، واتّبعه الحذّاق من علماء اللغة العربية ، فلمسوا أن الألفاظ تتوالد وتنمو وتتطوّر ، فتتدرّج في علوّ و وتنحطّ في استفال باستهلاك الاستعمال وقلّته . فحياتها بكثرة استهلاكها ، وموتها في التخلّي عن استعمالها ، فعادوا إلى الواقع اللغوي يستقصونه إحصاء من أفواه الناطقين باللسان العربي ، فما كثر تردّده سموه مطردا ، وما قلّ سموه شاذاً . لأن أصل مادة (ط رد) في كلام العرب " التتابع و الاستمرار" . وأصل مادة (ش ذ ذ) " التفرّق والتفرّد" ، فنزّلوا كلام العرب منازل أربع وفق " السماع" و " القياس" و " الشذوذ والاطراد" .

وفي تصوّرنا أن هذا الضابط أهمّ رافد لنموّ اللغة العربية وتطوّرها ، إذ يلاحظ أن علماءنا الأوائل لم يستعملوا مصطلحي " الصواب والخطأ " وإنما وظّفوا الاطراد والشذوذ ، والكثرة والقلّة ، منذ سيبويه الذي يوظف " لغة جيّدة » ، ولغة عربية ، و " لغة فصيحة" ، ولا يرى نقصا في من يستعمل

---

[1] - ابن جني : الخصائص . ج1 : ص 358

[2] - المصدر السابق نفسه ، ج1 ، ص 111

" لغة رديئة" . قال ابن جني : " فإذا كان الأمر في اللغة المعوّل عليها هكذا ، وعلى هذا فيجب أن يقلّ استعمالها ، وأن يتخيّر ما هو أقوى وأشيع منها ، إلا أن إنسانا لو استعملها لم يكن مخطئا لكلام العرب ، لكنّه كان مخطئا لأجود اللغتين" . ( )[1]

وذلك لأن العالم اللغوي الضليع في علم اللسان البشري يعمد إلى الاستقراء والتتبّع لمجاري الكلام المراد دراسته ، وهذا ما انتهجه العلماء العرب الأصلاء .

و يا ليت علماءنا المعاصرين اقتدوا بهذا المنهج العلمي السليم ، إذا ما أكثر الألفاظ السليمة و الأساليب المستقيمة التي تجري على ألسنة الناس في المجتمع الجزائري ، ولم تجد مدخلا إلى بطون الكتب المؤلّفة للتدريس في المدارس الابتدائية والثانويّة والجامعيّة . فكيف تنمو العربية في الجزائر وتتطوّر إذا لم نعد للواقع اللغوي الجزائري الأصيل .

هذا ، ولئن كان الخليل بن أحمد اخترع مصطلحي " الاستعمال" ، و" الإهمال" فإن ابن جنّي وظّف" الاطراد والشذوذ" ، ومَرَدّ الأمرين واحد وغايتهما واحدة.

وعليه فلنعمد الآن إلى المنازل الأربع ، كما أثبتها ابن جنّي الذي يقول: " أصل مواضع (ط ر د) في كلامهم ـ أي العرب ـ " التتابع والاستمرار" من ذلك : طردت الطريدة ، إذا اتبعتها واستمرّت بين يديك . ومنه : مطاردة الفرسان بعضهم بعضا ، ألا ترى أن هناك كرّا وفرّا ، فكلٌّ يطرد صاحبَه .... وأما مواضع (ش ذ ذ) في كلامهم فهو التفرّق والتفرّد " . ( )[2]

مما يمتاز به العلماء العرب عودتهم إلى الأصول العامّة المادية للكَلِم ، ثمّ يطبّقونها على الأصوات المجرّدة التي لا وزن لها ولا لون ، ولكنها مسموعة

---

[1] - المصدر السابق نفسه ، ج2 ، ص 121

[2] - المصدر السابق نفسه ، ج1 ، ص 111

بالآذان منطوقة باللسان ، لذلك عقّب ابن جنّي على هذين الأصلين بقوله : " هذا أصل هذين الأصلين في اللغة، ثم قيل ذلك في الكلام والأصوات على سمته وطريقه في غيرهما، فجعل أهْلُ عِلْمِ العرب ما استمرّ من الكلام في الإعراب وغيره من مواضع الصناعة مطّردا، وجعلوا ما فارق ما عليه بقية بابه، وانفرد عن ذلك إلى غيره شاذّا، حملا لهذين الموضعين على أحكام غيرهما.

ثم اعلم من بعد هذا أن الكلام في الاطراد والشذوذ على أربعة أضرب " . ([1])

1 ـ الضرب الأول : المطرد في القياس و الاستعمال ، قال عن : " وهذا هو الغاية المطلوبة والمثابة المنوبة. وذلك نحو : قام زيدٌ، وضربتُ عمرًا، ومررتُ بسعيد" . وهذا هو الكلام المطّرد المتعارف عليه جميع الناطقين بالعربية، ويستعملونه بكلّ بساطة وعفوية لخضوعه على ما تواطأ عليه العرب في مخاطباتهم العادية لذلك سمّاه سيبويه "بالكلام المستقيم الحسن" ، ومثّل له بقوله : " أتيتك أمس ، وسآتيك غدا " .

وقد أطلق الأستاذ الدكتور عبد الرحمن حاج صالح على هذا النمط من التعبير مصطلح " الفصيح"، ويعني به الكلام السليم والخالي من كلّ تعقيد، المفهوم لدى الخاصّ والعام، فقال : " العربية الفصحى طور من أطوار العربية حظيت بانتشار عجيب وبقاء أعجب، وذلك بفضل القرآن، فكيف كان اللغويّون يحدّدونها، وما هي المقاييس التي اعتمدوا عليها في إقامة ما سمّوه فصيحا، وتمييزه مما ليس كذلك " . ([2])

هذا الصّنف من الكلام هو السائد في مخاطبات الناس بعضهم بعضا

---

[1] ـ المصدر السابق نفسه ـ ص 97 . ج1

[2] ـ حاج صالح عبد الرحمن : من محاضرات في علم اللسان العربي. ألقاها على طلبة الليسانس ـ سنة 1966.

عندنا ، فجلّ الجزائريين يعرفون أن" القنطرة" و " المرسى" ؛ لكن المشرع المدرسي استخدم مصطلحي" الجسر" و الميناء" ، فاستبدلهما رجل الشارع بالمصطلحين الأجنبيين هما على التوالي : (Pont) و (Port) . هذا الغلوّ في استعمال الغريب يعطّل عملية التطوّر والنموّ ؛ وإن كان سليما لكنه ليس متداولا في الفئات الاجتماعيّة إلا عند الخاصّة لندرته .

2 ـ **الضّرْب الثاني :** هو المطّرد في القيَاس الشاذّ في الاستعمال " وذلك نحْو الماضي من : يَذَرُ و يَدَعْ . وكذلك قولُهم :" مَكَانٌ مُبْقِلٌ .. هذا هو القياس. والأكثر في السّماع (بَاقِلٌ) " . ([1])

هذا الوزن ثابت بالقياس إذا حمل على نظيره (وضع) الذي توفّرت فيه الصيَغ الثلاث (وَضَعَ يَضَعُ ضَعْ)، لكن الفعليين (يَذَرُ، و ذَرْ، و يَدَعُ، و دَعْ) فإن ماضيهما تخلّف مع اقتضاء القياس لهما. والغريب في الأمر أن هاتين الصيغتين ما زالتا مستعملتين بكثرة إلى يومنا هذا ، بخاصّة الأمر من الذي هو (دَعْ) . فما زلنا نسمع ونقرأ : دَعْ عَنْكَ هَذا ، أو دَعْنِي أقولُ لك .. إلخ

ومما يلحق بهذا الضرب في عصرنا هذا كثرة استعمال (مُلْفِتٌ لِلنَّظَرِ) بدل (اللاَّفِت لِلنَّظَرِ) الذي هو القياس لاسم الفاعل من الفعل الثلاثي المجرّد (لَفَتَ). قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إلاَّ امْرَأَتَكَ ﴾ . ([2])

ومما هو كثير في الاستعمال مطّرد في القياس قولُ العامّة : (الْبَابُ مَغْلُوقٌ) وقياسُه : (الْبَابُ مُغْلَقٌ) ، لأنه اسم مفعول لفعل ثلاثي مزيد بالهمز، وبابه القياس ، كما رأيْنَا آنفا.

3 ـ **الضّرب الثالث :** هو " المطّرد في الاستعمال الشاذ في القياس" ،

---

[1] المصدر السابق نفسه ، وكذا الصفحة.

[2] ـ سورة هود ، الآية 81

نحو قولهم : أَخْوَصَ الرِّمْثُ ([1])، و استصوبت الأمر ([2])

وهاهنا تتنازع الفصاحة مع القياس ، إذ [illegible] الكلام فصيحا رغم خروجه عن القياس المتواطئ عليه ؛ من ذلك عمل (ما) الذي يرفضه التميميّون لأنها لا تختصّ بنمط معيّن من التراكيب ، فهي عندهم كهمزة الاستفهام و (هَلْ) ؛ فهما حرفان لا يعملان شيئا لعدم تخصّصهما بضرب معيّن، فأنت تقول : هَلْ حَضَرَ الأُسْتَاذُ، كما تقول : هَلِ الأُسْتَاذُ حَاضِرٌ ؟ .. بيْد أن الحجازيين يشبّهونها بـ (لَيْسَ) في النفي والعمل، فتعمل عملها عندهم، فترفع المبتدأ ويسمّى اسمها، وتنصب الخبر ويسمّى خبرها، وهي اللغة الفصيحة لورود القرآن بها، قال الله سبحانه وتعالى في سورة يوسف : ﴿ مَا هَذَا بَشَرًا ﴾ ([3]) . وقال عزّ من قائل في سورة المجادلة : ﴿ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ﴾ . ([4])

إن هذا الفصاحة والاطراد في الاستعمال لا يُخوّلان القياسَ على ما ورد فيهما من مسموع الكلام ." ألاَ ترى أنّك إذا سمعته : استحوذ و استصوب أدّيتهما بحالهما ، ولم تتجاوز ما ورد به السمع فيهما إلى غيرهما، ألا تراك لا تقول في (استقام) : استقوم ، ولا في (استساغ) : استسوغ ، ولا في (استباع) : استبيع، ولا في (أعاد) : أعود، لو لم تسمع شيئا من ذلك ، قياسا على قولهم : أَخْوَصَ الرِّمْث ، فإن كان الشيء شاذّا في السماع مطّردا في القياس تحامَيْت ما تحامَت العربُ من ذلك ، وجريت في نظيره على الواجب في أمثاله، من ذلك امتناعك من : (وَذَرَ)، و (وَدَعَ) ؛ لأنهم لم يقولوهما .

---

[1] - الرِّمْثُ : شجرٌ ينبتُ في الصحراء الجزائرية ـ ترعاه الإبلُ ـ معروفٌ جدا بهذا الاسم . يعلوه عسلوج ناعم إذا كانت السنة خصبة.

[2] - المصدر السابق نفسه . وكذا الصفحة.

[3] - الآية 31

[4] - الآية 02

ولا غَرْوَ عليك أنْ تستعمل نظيرَهما ؛ مـن نحـو : (وَزَنَ) و (وَعَـدَ) ، لـو لم تسمعهما " . ( )[1]

4 ـ **الضّرب الرابع :** هـو " الشـاذّ في القيـاس والاسـتعمال جميعـا . وهـو كتتميم مفعول فيما عينه واو ؛ نحـو : ثـوبٌ مصـوونٌ ، ومسـكٌ مـدووفٌ ( )[2]. وحكى البغداديّون : فرسٌ مقوودٌ ، و رَجلٌ معوودٌ من مرضه . وكل ذلك شاذّ في القياس والاستعمال ، فلا يسوغ القياس عليه ، ولا رَدُّ غيرُه إليـه ، ولا يحسـن أيضا استعماله فيما استعملته فيه إلا على وجه الحكاية " . ( )[3]

إن هذا العرض الوافي لأنماط القياس والاستعمال ، وما يتعلّق بهمـا مـن شذوذ واطّراد لجدير بنا أن نستشف المقاصد والأغراض ، وأن نعتمدها في تنميـة اللغة العربية وإثرائها . إذ الألسن تقذف بالألفاظ التي لا لون لهـا ، ولا وزن ، ولا رائحة ، وإنما تـدرك بحاسّـة السـمع ، ونعـي دلالاتهـا بـالتواضع والسـياق والمقام ، و نقيس بنيتها على النظائر والأشباه ، وفصاحتها عـلى كـثرة التـداول والشيوع بين الناطقين باللسان المراد دراسته .

II ـ الاشتقاق :

من المتعارف عليه لدى علماء العربية أن الألفـاظ منهـا مـا يقـبل التشقيق و التـنويع بالـزيادة و النقـصان ، و منـها ما هـو جـامد لا يتحلحـل ، و لا يتحوّل عن بنيته ، تبعا للدلالات المتوخّاة منه . و قد تنبّـه العلمـاء العـرب إلى هـذه الديـناميكية ، و اسـتغلوها لمعرفة الأصل والفرع ، و الجوهر و الهيئـة ، فكان أن حصل بين التصريف والاشتقاق تداخل لما بينهما مـن نسـب متـين ،

---

1 ـ المصدر السابق نفسه ، ص 99. ج1

2 ـ أي مخلوط أو مبلول .

3 ـ المصدر السابق نفسه ، 98 ـ 99 ج1

فكثر التأليف في التصريف الذي هو قسيم النحو، و قَلّ في الاشتقاق الذي هو أقعد في اللغة .

يقول ابن جنّي في شرحه لكتاب التصريف للمازني : " إن التصريف وسيطة بين النحو و اللغة، و الاشتقاق أقعد في اللغة كما أن التصريف أقرب إلى النحو من الاشتقاق " . ([1])

و يعرّف طاش كُبري زاده الاشتقاق بأنه" العلم الباحث عن كيفية خروج الكلم بعضها عن بعض بحسب مناسبة بين المخرج والخارج بالأصالة و الفرعية، و باعتبار جوهرها، و إنما ذكرنا هذا القيد إذ يبحث في الصرف أيضا عن الأصالة و الفرعية بين الكلم لكن لا بحسب الجوهرية بل بحسب الهيئة ... ثم يقول : " واعلم أن مدلولَ الجواهر بخصوصها يعرف من اللغة، وانتساب البعض إلى البعض على وجه كليّ، إن كان في الجوهر فالاشتقاق، وإن كان في الهيئة فالصرف " . ([2])

إذن فمنشأهما واحد، وجوهرهما مفرد وهو اللغة بصفة كلية، فإن عاد المراد إلى الجوهر فاشْتِقَاقٌ، وإن عاد إلى الهيئة فصَرْفٌ، وهي عملية منهجيّة محضة لما بينهما من الاتصال الشديد والتكامل المفيد؛ وذلك " لأن التصريف إنما هو أن تجيء إلى الكلمة الواحدة فتصرفها على وجوه شتّى ، مثال ذلك أن تأتي إلى (ضَرَبَ)، فتبني منه مثل (جَعْفَر) ؛ فتقول : (ضَرْبَب) ، ومثل : (قِمَطْر) : (ضِرَبٌّ)، ومثل (دِرْهَم)، فتقول : (ضِرْبَبٌ)، ومثل : (عِلِم) : ضَرِبَ ، و مثل (ظَرُفَ) ، فتقول : (ضَرُبَ) . أفلا ترى إلى تصريفك الكلمة على وجوه كثيرة . وكذلك الاشتقاق أيضا، أفلا ترى أنّك تجيءُ إلى

---

[1] ـ ابن جني : المنصف ؛ شرح كتاب المازني في التصريف مطبعة مصطفى البابي- مصر . [د.ت] ، ط1 . ج1 ، ص3 .

[2] ـ طاش كبرى زاده : مفتاح السّعادة، و مصباح السيادة. ج1. ص126 .دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان . بدون تاريخ.

(الضّرْب) [1] الذي هو المصدر، فتشتقّ منه الماضي (ضَـرَبَ) ، ثـم تشـتقّ منـه المضارع ، فتقول : (يضرب) ، ثم تقول في اسم الفـاعل : (ضَارِبٌ) . وعـلـى هذا ما أشبه هذه الكلمة " . [2]

هذا المفهوم النامي للاشتقاق والمرتبط بعلم الصرف هو الـذي ركّـز عليـه علماء النحو العربـي الأقدمـون، ووجـدوا فيـه متسـعًا وفضـاء لكـلّ مـا جـدّ في حياتهم اليومية السياسية منها والثقافيـة والسـلطانية، فتيسّـرت لهـم ترجمـة الدخيل وتعريبه إن عسر عليهم النظير والمثيل دون أن تظهر أي شائبة عليه.

وانصبّت أعمالهم على المشتقّات التي هي :

1 ـ المصدر و أنماطه ، الثلاثية والرباعيـة والخماسـية والسداسـية ، المسـموع منها و المقيس .

2 ـ اسم الفاعل و أنماطه ، من الثلاثي المتعدّي واللازم، والرباعي والخماسي والسداسي، مع إضافة صيغ المبالغة من الفعل الثلاثي، مراعين الأداء والدلالـة في كلّ موضع. حيـث يعتقـد كثـير مـن البـاحثين أنهـا في درجـة واحـدة مـن التبليغ. لكـن المحققـين مـن أهـل العربيـة يقولـون : " لا يجـوز أن تختلـف الحركتان في الكلمتين ومعناهما واحد. قالوا : فإذا كان الرجل عدّة للشيء قيل فيه (مُفْعِلٌ)، مثل : مُرْحِمٌ ، وَمُحْـربٌ . وإذا كـان قويـا علـى الفعـل قيـل : (فَعُول)، مثل : صَبُورٌ و شَكُورٌ. وإذا فعَل الفعلَ وقْتًا بعد وقْتٍ قيل (فَعّـال) ، مـثل : عَـلاَّم و صَبَّار . وإذا كـان ذلك عـادة له قـيل (مِفعَال)، مثل : مِعْوَانٌ و مِعْطَاءٌ و مِهْدَاءٌ.

ومن لا يتحقّق المعاني يظنّ أن ذلك كلّه يفيد المبالغة فقط. وليس الأمـر

---

[1] ـ هذا هو رأي البصريين ومذهبهم، أما الكوفيون فخـالفوهم في رأيهـم ، ورأوا أن الفعل هـو الأصل ، ونحن لا حاجة لنا بهذا الاختلاف.

[2] ـ ابن جني : المنصف ، شرح التصريـف للمـازني، تحقيـق إبراهيـم مصطفى و عبـد الله أمين، مكتبة مصطفى البابي الحلبي بمصر. [د.ت] . ج1 ، ص 40 .

كذلك ، بل هي مع إفادتها المبالغة تفيد المعاني التي ذكرناها " . [1]

3 ـ اسم المفعول و صيغه المختلفة، من الفعل الثلاثي اللازم والمتعدّي، كل واحد وهيئته الخاصّة به، وكذا السالم والمعتلّ، والمثالي والأجوف والناقص.

4 ـ الصفة المشبهة وهيئتها ودلالتها الثابتة ، غير المتغيّرة ومظان اشتقاقها .

5 ـ اسم التفضيل والأفعال التي يشتقّ منها، والتي لا يصحّ أن يشتقّ منها.

6 ـ أسماء الأزمنة والأمكنة وأبنيتهما.

7 ـ أسماء الآلة والأداة والفرق بينهما.

هذه التشقيقات تنحدر من أفواه الناطقين باللسان العربي بعفويّة تامّة دون مشقّة، وعلماء اللغة هم الذين يعلّلون ويحلّلون ، حيث نرى ابنَ جني يقول إن " هذا القبيل من العلم، يعني التصريف، يحتاج إليه جميع أهل العربية أتمَّ حاجةٍ، وبهم إليه أشدّ فاقةٍ ، لأنه ميزان العربية ، وبه تعرف أصول كلام العرب من الزوائد الداخلة عليها، ولا يوصل إلى معرفة أصول الاشتقاق إلا به .

وقد يؤخذ جزء من اللغة كبير بالقياس ، ولا يوصل إلى ذلك إلا من طريق التصريف، وذلك نحو قولهم : إن المضارع من (فعُل) لا يجيء إلا على (يفعُل) بضمّ العين، ألا ترى أنك لو سمعت إنسانا يقول : كرُم يكرَم) ، بفتح الراء من المضارع لقضيت بأنه تارك لكلام العرب، سمعتهم يقولون (يكرُم) أو لم تسمعهم . لأنه إذا صحّ عندك أن العين مضمومة من الماضي قضيت بأنها مضمومة في المضارع أيضا قياسا، ولم تحتج إلى السماع في هذا ونحوه . وإن كان القياس أيضا ممّا يشهد بقياسك.

[1] ـ ابو هِلال العَسْكَريّ : الفروق اللغويّة . دار الآفاق الجديدة بيروت 1979. ص 16

ومن ذلك أيضا قولهم : إن المصدر من الماضي إذا كان على مثال (أفعل) يكون (مُفعَلا) بضمّ الميم وفتح العين ، نحو : أدْخَلْتهُ مُدْخلاً ، وَأَخْرَجْتَهُ مُخْرَجًا . ألا ترى أنك لو أردت المصدر من (أَكْرَمْتَه) على هذا الحدّ لقلت (مُكْرَمًا)، ولم تحتج فيه إلى السماع.

وكذلك قولهم : كل اسم كانت في أوله ميم زائدة مما ينقل ويعمل به فهو مكسور الأول ، نحو : مِطْرَقَة، ومِرْوَحَة، إلا ما استثني من ذلك . فهذا لا يعرفه إلا من يعلم أن الميم زائدة، ولا يعلم ذلك إلا من طريق التصريف. فهذا ونحوه مما يستدرك من اللغة بالقياس " . ([1])

يلاحظ على هذا النص المستشهد به ملاحظتان :

- **الأولى : تضافر الرّوافد :**

إن هذه الروافد التي أسسنا عليها بحثنا واعتبرناها منطلقات لتطوّر اللغة العربية ونمائها متكاملةٌ سواء في ذلك القياس الذي ألمعنا إليه آنفا أو التصريف أو الاشتقاق الذي نعالجه في هذا المقام، أو ما سيأتي من روافد كالنحت والتوليد والاصطلاح والمعرّب والحقيقة والمجاز ، فعَلى هذا الأساس يجب أن تتضافر هذه الآليات الدّالة على شجاعة العربية وقدرتها على الاستيعاب لكلّ ما يجدّ في نواحي الحياة الدنيويّة.

- **الملاحظة الثانية : قوّة السّليقة العربية عند الجزائريين .**

إن البدويّ الجزائري الذي لا يعرف طريق التصريف والاشتقاق يقول بداءً: " المهراز، والمطرقة، والمذياع، والمقصّ" بكسر الميم دون أن يدري أنّ هذه الميم زائدة ، ويقول في الأشياء الثابتة والمستقرّة التي لا تنقل ولا يعتمل بها " مَدْرَج ، ومَصْطَبَة ، ومَزْرَعَة ، و مَرْقَاة ، و مَنَارَة " ، دون علم بضوابط علماء

[1] ـ ابن جني : المنصف ؛ شرح التصريف للإمام المازني . ج1 ، ص 02

اللسان العربي المقيّدة بضرورة زيادة الميم .والتفريق بين ما ينقل وما لا ينقل وفق ما يرى ابن جني العالم بخصائص العربية الذي يقول : " ومن ذلك قولهم للسُّلَّمِ : مِرْقَاةٌ ، وللدَّرَجَة : مَرْقَاةٌ . فنفس اللفظ يدلّ على الحدث الذي هو الرقيّ ، وكسر الميم يدلّ على أنها مما ينقل ويعتمل عليه وبه ، كالمِطْرَقَةِ و المِئْزَر و المِنْجَل . وفتحة ميم (مَرْقَاة) تدُلّ علَى أنّه مستقرٌّ في موضعه ، كالمَنَارة و المَثَابَة ، ولو كانت المنارة مما يجوز كسر ميمها لوجب تصحيح عينها . وأن تقول فيها : مِنْوَرَة ، لأنه كانت تكون حينئذ منقوصة ، من مثال (مِفْعَال) كمِرْوَحَة و مِسْوَرَة ( )[1]، ومِعْوَل ومِجْوَل ( )[2]، فنفس (ر ق ي) يفيد معنى الارتقاء ، وكسرة الميم وفتحتها تدلاّن على ما قدمناه ، من معنى الإثبات أو الانتقال " . ( )[3]

هذا الانضباط و التعليل الذي أتى به ابن جنّي يخصّ عالم العربية ، لكن العربي البسيط تَتَفتّقُ هذه الصّيَغُ والأمثلةُ من (فِيهِ) بسليقة مُتَمَكّنة في جبلته الفطريّة دون اللجوء إلى الانتحال والتمحّل لما بين اللغة و الفكر من ترابُط مَتين، وتلاحُم مستقيم .

إن المقاصدَ التي رامها العلماء العرب من دراسة الاشتقاق ليست هي المقاصد التي نرومها ونسعى إلى تحقيقها، فهم أوقفوا أعمالهم اللغويّة على الدّراسة الوصفية الاستقرائية، وهو عمل ترتضيه المذاهب القديمة والحديثة للعلوم اللسانية، لأنهم كانوا يؤسّسون علما لغويا للسان العربي الذي لم تكن له قوانين علمية مكتوبة ولا ضوابط مسْطورة في سجّل الكتاب، لذلك سلكوا مسالك الاستيعاب والتتبّع .

---

[1] ـ مِسْوَرَة : مُتّكأ من الجلد .

[2] ـ مِجْوَل : ثَوْب للنّساء أو للصغيرة منهنّ.

[3] ـ ابن جني : الخصائص ، مطبعة دار الكتب المصريّة 1376 هـ / 1956م . ج3 ، ص 100 ـ 101

أما نحن فنرمي من وراء دراستنا هذه تبيين آليات التطوّر التي تسهّل عملية النموّ والارتقاء للغة العربية، ومسايرتها لما يجدّ في الآفاق بفضل الاشتقاق والتصريف والتوليد إلى غير ذلك.

وهذا ما قامت به المجامع اللغوية العربية الحديثة التي انطلقت من التراث العلمي للسان العربي مركزة على أساسيات العربية وشجاعتها، فبعثت ما قدُم من ألفاظها حتى تتلاءم مع المعاني المستحدثة، فتتناولها الألسن والأقلام، فتشيع في الصّحُف والمجلات والسينما والتلفزة ، وفي الكتاب المدرسي، والخطب الأسبوعيّة والمساجد والمحافل السياسية ، فتصبح مألوفة لطيفة ومقبولة لدى الخاصّ والعامّ، في الشارع والبيت والباعة.

إن هذا العمل العلمي الجادّ هو الذي يفرق بين ما نصبو إليه من جعْل اللغة العربية لغة نامية متطوّرة قابلة لمبدأي التأثّر والتأثير، فاعلة ومنفعلة، مثلها مثل كل اللغات البشرية التي حدّها ابن جني بقوله : " إنها أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم" . ([1]) إنه نفس المفهوم لدى العلماء اللسانيين المحدثين الذين يقولون : " إن اللغة مؤسسة اجتماعيّة " فاستبدلوا بالقوم " المجتمع" ، وما أضافوا شيئا سوى أنهم فرّقوا علم اللغة كصناعة والملكة اللغويّة كأداة، وهو ما اهتدى إليه ابن خلدون من قبل ، فقال :" إن صناعة العربية إنما هي معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصّة ، فهو علم بكيفية، لا نفس كيفية، فليست نفس الملكة، و إنما هي بمثابة من يعرف صناعة من الصنائع عِلْمًا ، ولا يحكمها عملاً . مثل أن يقول بصيرٌ بالخيَاطة غير مُحْكِم لملكتها في التعبير عن بعض أنواعها : " الخياطة هي أن تدخل الخيط في خِرْت الإبرة ، ثم تغرزُها في لفقي الثوب مجتمعين، وتخرجها من الجانب الآخر بمقدار كذا .. ثم تردّها إلى حيث ابتدأت، وتخرجها قدام منفذها الأول

---

[1] ـ ابن جني : الخصائص . ج1 ، ص 34

بمطرح ما بين الثقبين الأولين، ثم يتمادى على وصفه إلى آخر العمل ، ويعطي صورة الحبك والتنبيت والتفتيح ، وسائر أنواع الخياطة وأعمالها ، وهو إذا طولب أن يعمل ذلك بيده لا يحكم منه شيئا " . ([1])

إن هذه النظرة العلمية من ابن خلدون الذي يفرّق بين التنظير والتطبيق لجدير بنا أن نعيَها، ونوليها عناية خاصّة، إذ هي الطريق الأمثل لتليين العمل اللغوي الذي هو عبارة عن الصناعة الماديّة، وذلك لأن النظام اللغوي للعربية، كما لغيرها، تحكمه قوانين مضبوطة ليست من الملكة اللسانية في شيء . وقد أحسن حين ضرب لنا مثلا بمعلّم الخياطة الذي يحسنها نظريًّا ، فإذا طُلِب منه تطبيق هذه المقاييس عجز عن أدائها.

ولعلّ هذا هو السبب الرئيسي الذي جعل العربية تتجمّد عند أصحاب المتون والمنظومات الذين جاؤوا في عصور الانحطاط ، فأثقلوا مؤلّفاتهم بالقوانين والأحكام والتعليلات والخلافات التي لا تجدي صاحبها نفعا ولا نطقا.

والحقيقة أن هذه المنهجية مازالت في أغلب دروس " العربية" إلى يومنا هذا . ففقهاء العربية هم أعجز الناس عن استعمالها لاهتمامهم بالقوانين الصناعيّة التي هي كيفيات الملكة و ليسَت الملكة نفسها.

" إن العلم بقوانين الإعراب إنما هو علمٌ بكيفيّة العمل ، وليس هو نفس العمل ، وكذلك تجد كثيرا من جهابذة النحاة و المهرة في صناعة العربية المحيطين علما بتلك القوانين إذا سُئِل في كتابة سطرين إلى أخيه أو ذي مودّته أو شكوى ظلامة أو قصْدٍ من قصوده أخطأ فيها الصواب، وأكثر من اللحن، ولَم يُجِدْ تأليفَ الكلام لذلك، والعبارةَ المقصودة فيه على أساليب اللسان العربي.

---

[1] — ابن خلدون : المقدّمة . مطبعة المكتبة المدرسية والكتاب اللبناني بيروت 1960. ص 1081 – 1082

وكذا نجد كثيرا ممّن يحسن هذه الملكة ويجيد الفنَّين من المنظوم والمنثور ، وهو لا يُحسن إعراب الفاعل من المفعول ، ولا المرفوع من المجرور ، ولا شيئا من قوانين صناعة العربية " . ([1])

واضح جدًا من هذا الكلام أن التعليم الأكاديمي الذي يهتمّ بالقوانين ويهمل الملكة هو تعليم غير مفيد لتطوير" العربية" ونموّها في عالم تداخلت فيه اللغات والمصطلحات .

إن الوضع اللغويّ العربي في الجزائر أحاطت به عوائق كثيرة أهمّها ما توارثناه من استعمار لغويّ هيمن على الحياة الإدارية والاجتماعية والثقافية وحتّى السياسية ردحا من الزمن. وشدّ من عضده مَن تثقّف من هذا الزاد اللغوي الأجنبيّ ، وعدّه بعضهم مغنماً لغويا سعدت به الجزائر دون جارتيها (تونس والمغرب)، و هو وهْمٌ خطير . ومن هنا دأبت الجزائر منذ اليوم الأوّل من إعادة السيادة لها في التعريب فكوّنت :

* لجنةً للتعريب .
* و مجلسًا لاستعمال العربية في الإدارة .
* و مجلسًا أعلى للغة العربية.
* ومجمعًا لغويا .

كل هذه المؤسسات السياسية أثقل كاهلها التطرّف اللغوي الأجنبيّ لفقدان التشجيع والتوظيف في الأماكن الحساسة العليا .

و إلى جانب ما تقوم به المدرسة الجزائرية والجامعة من جهد في تطوير العربية في الكتاب المدرسي والمناهج والبرامج والإصلاح المتواصل ، ومع ذلك فلا زالت الفرنسية يشتدّ ساعدُها يوما بعد يوم .

---

[1] ـ المصدر السابق نفسه والصفحة ذاتها .

- **لفتة علمية لغوية :**

إن العلماء اللغويين العرب المؤسسين للمجامع اللغويّة الحديثة تنبّهوا إلى أن اللغة تنمو و تتطوّر بتطوّر الحياة و اتساعها ، وأنها ظاهرة اجتماعيّة تستجيب لحاجات الناس وأغراضهم، حسب كل عصر و مصر، فلا غرابة إن هم ترصّدوا مسار العربية، لأنّ الأوائل تخاطبوا فيما بينهم بعربيتهم السائدة في عصرهم. فتواضعوا عن مسميات تتناسب وأزمانهم وأحوالهم وأوضاعهم الماديّة والمعنويّة فأثروا لغتهم. وعلى هذا الأساس لاحظ اللغويّون المحدثون أن هناك أشياء جدّت في الحياة العصريّة لا أسماء لها، ففزعوا إلى الترجمة إن وجدوا مضارعا لهذه المخترعات الجديدة، وإلاّ عرّبوه وفق مقاييس عربية، وصيغ صرفية تلحق بالصيَغ التي تواضع عليها الأعراب البدْو من قبلُ.

وههنا أريد أن آخذ نموذجاً واحداً مما اجتهد فيه العلماء اللغويّون العرب المحدثون وأصابوا فيه، مع الاحتفاظ بالأساس المتواطئ عليه ، وهو اسم الآلة المعالج بها ، فقد عقد سيبويه بابا لها فقال : " هَذَا بَابُ مَا عَالَجْتَ بِهِ . أما الْمِقَصّ فالذي يُقَصُّ ، والْمَقَصُّ : المكان والمصدر. وكلّ شيء يُعالَج به فهو مكسور الأول كانت فيه هَاءُ التأنيث أو لم تكنْ ، وذلك قولك : مِحْلَب و مِنْجَل و مِكْسَحَة و مِسَلّة، والمِصْفَى و المِخْرَزُ والْمِخْيَطُ . وقد يجيء على (مِفْعَال) نحو : مِقْرَاض و مِفْتَاح و مِصْبَاح . وقالوا : المِفْتَح، كما قالوا: المِخْرَزَة و المِسْرَجَة. كما قالوا : المِكْسَحَة " . ([1])

إنّ هذه الأمثلة التي أوردها سيبويه، وهي وزن :

1 ـ مِفْعَال : كمِفْتاح، و مِنْشار، و مِحْراث .

[1] ـ سيبويه : الكتاب . طبعة بولاق. ج 2 . ص 249

2 ـ و **مِفْعَل** : كمِبْرَد، و مِغْزَل، و مِقْوَد .

3 ـ و **مِفْعَلَة** : كمِكْنَسَة، و مِطْرَقَة، و مِلْعَقَة .

هذه الأمثلة ظلّت هي نفسُها يرددها العلماء في كتبهم بلفظها وشكلها، واشترطوا في اشتقاقها أن تكونَ من أفعال ثلاثية . فلما تكوّنت المجامع اللغويّة هالتهم هذه القيود في قوالب جامدة، فأضافوا أربع صيَغٍ أخرى ، وتركوا الباب مفتوحا لما يجدّ في عالم الصناعة والاختراع .

وهاك هذه الصيغ الأربَع التي أقرّها المجمع اللغويّ المصْري سنة 1963.

أولاً ـ فِعَال . مثل : سِدَاد ، و زِنَاد ، و ثِقَاب.

ثانيًا ـ فَعَّالَة . مثل : غَسّالة، و سَمَّاعة ، وثَلاَّجَة .

ثالثًا ـ فَاعُول . مثل : سَاطُور، و نَاسُوخ (Fax)، وحَاسُوب (Ordinateur).

رابعًا ـ فَاعِلَة . مثل : رَافِعَة ، و عَارِضَة ، و نَاقِلَة . ونَاسِخَة .

كما أزالوا قيد الثلاثية في الفعل المشتق منه .

وعذر هؤلاء العلماء الأقدمين كما يرى الشيخ محمد علي النجار قائلا: " إن الأقدمين الذين تناولوا بحث اسم الآلة لم يتبسّطوا في الكلام وأوجزوا ، وعذرهم أن الآلات وأسباب الحياة لم تكن قد كثُرت وتضاعفت ، كما تضاعفت في عصرنا هذا " . ([1])

وهكذا نرى أن المجامع اللغويّة الحديثة جنّدت جهودها في خدمة العربية ، وفسحت المجال للاشتقاق ، لا في اسم الآلة فحسب ، وإنما في كلّ

[1] ـ الأستاذ الشيخ محمد علي النجّار ، بحث بعنوان : اسم الآلة . مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة . 1388 هـ / 1969 . ص 26

أبواب اللغة العربية. وما دمنا قد تناولنا اسم الآلة لا بأس أن نعرض هذه الفقرة للأستاذ محمد علي النجار نفسه، وهي : " و ينبغي هنا أن يفرّق بين الآلة واسم الآلة في الاصطلاح، فالإبْرة آلة، وليس باسم آلة، والمخيط بمعناها اسم آلة . والإشْفَى آلة. والمِخْرَز بمعناه اسم آلة، والسيف آلة، والمخذم اسم آلة. فالذي يعرض لاسم الآلة لا ينبغي له أن يذكر ما يدلّ على الأداة المحضّ التي لا تكون علاجية، ولا على الآلة التي لا يُشعر لفظُها بالآلية كالإبرة والإشفى" . (1)

وخلاصة القول إن الاشتقاق والتصريف يتداخلان فيما بينهما ، وأنهما رافدان عظيمان لتطوير اللغة العربية وتنميتها، إلا أن التصريف أعمّ من الاشتقاق، لأنّ بناء مثل : قَرْدَدَ من الضَّرْب، يسمّى تصريفا، ولا يسمّى اشتقاقا ؛ لأنه خاصّ بما بنته العرب " . (2)

III ـ الأخْذ :

إن الأخذ ركنٌ أساسيّ من أركان تنمية العربية وتوسيعها، وغالبًا ما أهملَه العلماء اللغويون العرب ، واكتفوا عنه ببابَي الاشتقاق والنحت. والحقيقة أن " الأخْذ" أعَمّ منهما، صرّح بذلك الإمام العالم أبو البقاء الكفويّ في مؤلّفه الضخْم " الكليّات " قائلا : " ودائرة الأخذ أوسع منْ دائرة الاشتقاق" . (3)

هذا وقد سبق علماء كثيرون الكفويَ، تعرّضوا لأبواب كثيرة تتعلّق بتطوير العربية وتنميتها، من بين هؤلاء السيوطيّ في كتابه " المزهر" الذي

---

1 ـ المرجع السابق نفسه والصفحة.

2 ـ السيوطي : المزهر. ج1 ، ص 351

3 ـ أبو البقاء أيوب بن موسى الحسني الكفوي : الكليات. مؤسسة الرسالة بيروت (د.ت) . ص 62

جملَ المعالمَ الكبرى لتطوير العربية ؛ مثل : الاشتقاق، والنحت، والتعريب، والقياس ، ولم يخصّ " الأخذ" بباب منفرد، وإن كان لمسه لمساً قويا في بَابَي الاشتقاق و النحْت . بيْد أني وجدْتُ في القرآن الكريم " الأخذ" و" النحتَ " مُجْتَمِعَيْن ، قال ا لله سبحانه وتعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ﴾ . ([1])

فالاتخاذ معناه تحويل السهول إلى قصور ، والجبال إلى بيوت من المادّة الجافّة إلى كيفيات أخرى ، فالسهول عادت قصورا مشيّدة، والجبال عادت بيوتا مشيّدة . وهذه الكلم التي هي معان مجرّدة لا لون لها ولا رائحة، بل هواء سائل مع الزفير، المنبعث من الرئتين، يؤخذ بعضها من بعض لتأدية أغراض متواضع عليها في مجتمع من المجتمعات البشرية .

وممّا عزّز لدَينا أن " الأخْذ " غير الاشتقاق ما ذهب إليه سيبويه في تعريفه الفعل فقال : " و أما الفعل فأمثلة أُخِذَت من لفظ أحداث الأسماء ، وبُنِيَتْ لما مَضى ، ولما يكون ولم يَقعْ، وما هو كائنٌ ولم ينقطعْ" . ([2])

هكذا يوظّف سيبويه مادّة (أ خ ذ) مفضّلا إياها على مادّة (ش ق ق) التي سادت عند مَن أتى بعده. وتناولها العلماء بالتأليف والجمع منذ أمد مديد، ابتداء من أبي العباس بن محمد بن عامر الضبيّ (المتوفّى 168 هـ) ، وكذا أبو علي محمد بن المستنير النحويّ المعروف بقطْرُب (المتوفّى سنة 206 هـ) ، والأصمعيّ (المتوفّى سنة 215 هـ) ، والأخفش الأوسط (المتوفّى سنة 231 هـ) ، وغيرهم . كل هؤلاء نجد أسماءهم في طبقات النحويين واللغويين سبقوا ابن دُريد (المتوفّى سنة 321 هـ) الذي جسّم لنا الاشتقاق في

---

[1] ـ الأعراف ، الآية 74

[2] ـ سيبويه : الكتاب . ج1 ، ص 12

معجمه الضخم، رادًّا فيه على" من يطعن على اللسان العربي ، وينسب أهله إلى التسمية بما لا أصل له في لغتهم، و إلى ادّعاء ما لم يقع عليه اصطلاح من أوّليّتهم ، وعدّوا أسماء جهلوا اشتقاقها، ولم ينفُذ علمهم في الفحص عنها فعارضوا بالإنكار" . ( )[1]

هذا ما جعل مصطلَح " الأخْذ " يختفي وينطوي ضمن الاشتقاق الذي تنوّع إلى صَغِير وأصغَر ، وكبير و أكبَر ، مما جعل ابن جني يقول عن صنف من أصناف الاشتقاق (باب في الاشتقاق الأكبر) هذا موضع لم يسمّه أحدٌ من أصحابنا؛ غير أن أبا عليّ ـ رحمه الله ـ كان يستعين به ويخلد إليه، مع إعواز الاشتقاق الأصغر . لكنه مع هذا لم يسمِّه، وإنما كان يعتاده عند الضرورة، ويستروح إليه، ويتعلّل به ، وإنما هذا التلقيب لنا نحن ، وستَراهُ ، فتعلمُ أنه لقب مستَحْسَن " . ( )[2]

ثم يسترسل في تقاليب الكلم ليدلّل بها على أنها تشترك في المعنى العام ، وركّز في بداية بحثه على مادّة مشتقات (ك ل م) وتقاليبها ، مُبيّنا أنها تجتمع في معنَى القوّة والشدّة . بيْد أن أبا البقاء الكفويّ يلحق هذه التقاليب نفسها بباب " الأخْذ " ، وليست من الاشتقاق في شيء ، وذلك لأنّ " دائرة الأخذ أوسع من دائرة الاشتقاق ، وكل ما مادّته ثلاثية فلها تقاليب ستّة : أربعة منها مستعملة، واثنان منها مهملة، مثاله مادّة الكلام ؛ فإن تقاليب هذه الحروف الثلاثة تَدلّ على التأثير بشدّة (كَلْم، مَلِك، لَكَم، كَمِل) هذا معنى الأخذ وليس فيه اشتقاق " . ( )[3]

إذا وازنّا بين ما ذهب إليه ابن جنّي وما رآه الكفويّ نجد أن بين الأخذ والاشتقاق نسبا قويّا إلا أننا نستطيع أن نقول : إن الأخْذَ أوسع مجالا،

---

[1] ـ ابن دريد : الجمهرة . مطبعة السنة المحمدية مصر 1378 هـ / 1958م . ص 04

[2] ـ ابن جني : الخصَائص. ج2 ، ص 133

[3] ـ الكفويّ : الكليّات. (مرجع سابق) . ص 62

وأرحب مكانا ، لأنه لا يشترط فيه مادّة معيّنة مقاربة بين المعاني المتشابهة، كالاشتقاق الذي هو " بعض الكلم من بعض ، واسمُ الجنّ مشتقّ من الاجتنان، رأن الجيم والنون تدلاّن أبدًا على السّتر . تقول العرَب للدّرْع : جُنّةٌ. وأَجَنَّهُ اللّيلُ ، وهذا جَنِينٌ ؛ أيْ هو في بطْن أمّه ، وأنّ الإنْسَ من الظّهُور، يقُولون : آنسْتُ الشّيءَ أبصَرتُه ، و عَلى هذا سَائر كلام العرب، عَلِمَ ذلك مَن علِمه ، وجَهِلَه مَن جَهِلَ " . ( )[1]

و على هذا الأساس فإننا سَنتناول دائرة " الأخْذ" من جِهات أربع هي:

1 ـ السّليقة العربية .

2 ـ الأخْذ من الأصْوات والصفات .

3 ـ الأخْذ منَ الأعلام العربية والأعجميّة .

4 ـ أخْذ الأفْعالِ من العضْو للدلالة على إصابته .

ولنأخذ الآن في تناولها واحدة واحدة، وتقديم الواحدة على الأخرى لا يعني تفضيلها.

• أوّلا ـ السّليقة العربيّة :

إنّها جزء من السليقة الإنسانية العامّة التي هي ناموس طبيعيّ في الآدميين، وملكة إنسانية لدى كلّ الناس جميعا لا تختصّ بقوم دون قومٍ ، ولا بزمان دون زمان، ولا تتطلّب ثقافة معيّنة، لهذا عرفَها أبو البقاء بهذا التعريف المختصر المفيد فقال : " والسّليقة قوّة في الإنسان بها يختار الفصيح من طرق التراكيب من غير تكلّفٍ ، وتتبّع قاعدة موضوعةٍ لذلك . وذلك مثل اتفاق طباع العرب الأولين في رفع الفاعل ونصب المفعول به وجرّ المضاف إليه،

[1] ـ السّيوطيّ : المزهر. ج1 . ص 345 ـ 346.

وغير ذلك من الأحكام المستنبطة من تراكيبهم " . ([1])

إن هذه السليقة الصافيّة ما زالت متمكّنة في نفوس العرب البدو الذين لم يمارسوا أيّ تعليم، فهم يرفعون المرفوع، وينصبون المنصوب، ويجرّون المجرور، فإذا سألتهم :" لماذا رفعتم أو نصبتم أو جررتم أجَابوك"، بقولهم : " لا نَدْرِي " . فإذا أردت معاكستهم بتحريف الكلام امتنعوا عن قبوله ولم يستسيغوه . أما الذين نالوا حظّا من التعليم فإنهم يعلّلون ويقيسون ويصحّحون فيصوّبون ويخطئون ، وعيبهم الوحيد الاكتفاء بالمألوف والمعروف في الكتب المدرسية . قيل لأعرابية : " أيّ الرجَال زَوْجُكِ ؟ قالتْ بداهَةً : " إنْ دَخَلَ فَهدَ وإنْ خرَجَ أَسِدَ ، لاَ يَسْألُ عَمّا عَهدَ " . ([2]) فوظّفت ثلاثة أفعال ، الأول (فَهد) آخذة إياه من (الفَهْد) لكثرة نومه وسكونه، وهو في كلامها كناية عن اللين واللطف معها. والثاني (أسِدَ) مأخوذ من (الأسَد) ، وهو في كلامها كناية عن الشجاعة. والثالث (لا يُسْألُ عَمَّا عَهُدَ) ، وهو في كلامها كناية عن الكرم، لا يَسْألُ عَمّا ذهَبَ من مالِه.

هذه السّليقة العفويّة هي التي أثبتَها النُّحاة في مؤلّفاتهم، فقالوا : " اسْتَحْجَرَ الطّينُ"، أيْ صَارَ حجَرا حقيقة أو مجازا؛ أي صار كالحجر في الصلابة. و" أنَّ البُغاثَ بِأرْضِنَا يَسْتَنْسِرُ"؛ أي يَصِير كالنسْر في القوّة " . ([3])

هذه السيولة في الأداء تساعِد على نموّ العربية وتطويرها ، فالأخذ من البُغَاث ، والحجر، والنسر أفعالاً تساعد على المصطلحات الحديثة ، كالطائرة من (طار) ، والدبابة من (دبّ) .

- [1] أبو البقاء الكفوي : الكليّات . ص 585
- [2] أبو العباس ثعلب : مجالِس العلماء . دار المعارف بالقاهرة ، د.تا. ص 214
- [3] رضيّ الدين الاستربَاذي : شرح شافية ابن الحاجب. مطبعة حجازي بالقاهرة 1358 هـ/ 1939م . ج 1 ، ص 11

ويرى الأستاذ المرحوم عبد الله قنون أن العامّة أصحَ تعريبا من المجامع اللغويّة؛ إذ العامّة توظّف (الطّيّارة) بدل الطائرة المستعملة في الكتب المدرسية، والمؤسسات العلمية والعمليّة ، ويسقط هذا المصطلح على (السيّارة) بدل السائرة ؛ لأنها مأخوذة من السيْر . وبلغة العامّة ورَد في القرآن : ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ ﴾ . ([1]) ومَرَدّ الأمر إلى السليقة العربية المتمكّنة في الفئات البدوية التي لم تخالط لوْثَة الأعاجم والمتفيهقين عنهم .

• ثانيا ـ الأخْذ منَ الأصْوات والصّفات .

أ ـ الأصْوات : الدليل على أن " الأخْذ" أوسع دائرة من الاشتقاق والنحت والقياس أن هناك ألفاظاً بعُد أخذها ، وتنوسي مَعْلَمُهَا فلا أحدٌ يعرفه. ذكر هذا ابن جني في كتابه الخصائص ، فقال : [وقد يمكن أن تكون أسباب التسمية تخفى علينا لبعدها في الزمان عنّا، ألا ترى إلى قول سيبويه : " أو لعلّ الأوّلَ وصل إليه علم لم يصل إلى الآخر" يعني أن يكون الأول الحاضر شاهد الحال، فعرف السبب الذي له ومن أجله ما ([2]) وقعت عليه التسميّة، والآخِرُ ـ لبعده عن الحال ـ لم يعرف السبب للتسميّة ، ألا ترى إلى قولهم للإنسان إذا رفع صوته قد رفع عَقيرَتَه، فلو ذهبت تشتقّ هذا، بأن تجمع بين معنى الصّوت و بين معنى (ع ق ر) لبعُد عنك وتعسّفت . وأصله أن رجلاً قُطِعت إحدى رجليْه فرفعها ووضعها على الأخرى ، ثم صرخ بأعلى صوته، فقال الناس : رَفَعَ عَقِيرَتَهُ] . ([3])

وهذا تأكيد من ابن جنّي على أن " الأخْذ " لا علاقة له بالاشتقاق في كثير من الأحيان ، إذ الاشتقاق معلوم المصدر الماديّ ، وإنما تتبايَنُ الكلم ببنياتها التي غالبا ما تكون قياسيّة . وقد بيّنّا ذلك في معلم الاشتقاق آنفا.

---

[1] - سورة يوسف ، الآية 31

[2] - [مَا] : هنا زائدة و يجوز أن تكون مصدريّة ، مؤوّلة مع ما بعدها بمصدر.

[3] - ابنُ جني : الخصائص . ج1 ، ص 66

ب ـ **الصّفات** : كثِيرا ما تأخذ التسميّة من الصّفات ، قال عليه الصلاة والسلام : " الأوْلادُ مَبْخَلَة مَجْبَلَةٌ "، فهَذه الألفاظ مأخُوذة من البخْل والجبن، وهي أوصاف دالّة على الكثرة ، قال الاسترباذي : " اعلم أن الشيء إذا كثُر بالمكان، وكان اسمه جامدا فالباب فيه (مَفْعَلَة)، بفتح العين، كالمأسَدَة، و المَسْبَعَة، والمأذَبَة؛ أي الموضع الكثير الأسد و السباع و الذئاب " . ([1])

ومن هنا جاءت المكتبة والمدرسة ؛ أي الموضع الذي تكثر فيه الكتب والدراسة . ولا يدرك هذا المنحى إلا الحُذّاقُ للسان العربي الذين عزّ مطلبُهم في عصرنا هذا .

وإليكَ هذه الروايةُ الذكيّة التي سجّلها العلماء اللغويّون عن أبي عمرو بن العلاء " قال أبو بكر الزُّبَيْدِي في طبقات النحويين : سئِل أبو عمرو بن العلاء عن اشتقاق الخيل فلم يعرف، فمرّ أعرابيٌّ محرِمٌ، فأراد السائلُ سؤالَ الأعرابي، فقال له أبو عمرو : دعني فإني ألطف بسؤاله وأعرف ، فسأله، فقال الأعرابي: استفاد الاسم من فعل السير، فلم يعرف مَن حضر ما أراد الأعرابيّ، فسألوا أبا عمرو عن ذلك ، فقال : ذهب إلى الخيلاء التي في الخيل والعُجْب، ألا تراها تمشي العَرَضَنَة ([2]) خُيَلاءً وتكبّرا " . ([3])

ويعني هذا أن الذي يتفوّه بالكلام لا يعنيه من أين أُخِذت هذه اللفظة، وإنما الذي يعنيه ما تدلّ عليه اللفظة . ومن هنا قال أبو عمرو بن العلاء : " دَعْنِي فَإنِّي أَلْطَفُ بسُؤَالِهِ" . وذلك لكثرة مخالطته الأعراب ومعايشته إيّاهم، ومعرفته بنواياهم ومقاصدهم ومذاهبهم .

---

[1] ـ الاستراباذي : شرْح الشافية. ج 1 ، ص 188

[2] ـ الفرَس تعْدو العَرُضَنَى. و العَرْضَنَةُ : أيْ معترضة مرة من وجه ، ومرّة من آخر.

[3] ـ السيُوطي : المزهر. ج1 ، ص 363

- **ثالثا - الأخْذ منَ الأسماء الأجنبيّة .**

الأخذ من أسمـاء الأعْـلام والأجنـاس العربيـة والأجنبيـة مشَـاع بـين جميع اللغات، وعليه فإننا سنكْتَفي ببعْـض النماذج الخـاصّة باللغة العربيـة، مثـلا :

1 - الديموقراطية : كلمـة يونانيّـة تعـني العدالـةَ الاجتماعيـةَ، أخـذت صبغـة العالميـة بكيفيـات مختلفـة . وتكتـب باللغـة الفرنسـية (Démocratie)، وبالكتابة (الفونيتيكيـة) النطقيـة (demokrasi) ، فـالنطق يبـايَن الرسْـم الخطّـي عندهم. أما السليقة العربية فقد غيّرتها وألحقت بآخرها ياء مشدّدة بعدهـا تـاء مربوطة، وأطلق على هذا النمَط من البنية الصرفية (المصدَر الصناعيّ) ، فسـمح لمستخدمي العربيـة بالتوسّع في كـلّ الميـادين، فقـالوا في المـال : الماليّـة، وفي الاشتراك : اشـتراكية. و في الصّناعة : صـناعيّة. وبـنَوْا على هذا المصـدر مـا لا نهـاية لـه من المصادر التي هي في الأصل أسماء .

كما أخذوا من الديموقراطية فعلا فقالوا : مَقْرَطَ ، و تَمَقْرَطَ ، عـلى وزن (فَعْلَلَ) المجرّد ، و (تَفَعْلَلَ) من الرباعي المزيد بحرف واحد هو التاء ، مثل : دَحْرَجَ ، و تَدَحْرَجَ .

2 - باستور Pasteur : لفظ لاتيـني بمعنـى (راعـي أغنـام) ، وحـدث أن ظهر عالم فرنسي كيماوي في القرن التاسع عشـر (1822) اخـترع أدويـة كثـيرة من أهمّها (البنسيلين) التي عولجت بها الأوبئة المختلفة والأمـراض الفتّاكـة ، وتقديرا لجهوده العلمية الطبيّة أُسّست مؤسسات طبية تحمل اسمـه، كمـا هـو الحال في الجزائر، معهد باستور بحي بلكور، فـاتخذت العربيـة منـه فعـلا ، فقيل : بستر بسترة على وزن فعلل فعللة ، فالحليب المبستر بمعنـى المعقّم . هذا وقد أقرّ المجمع اللغوي بالقاهرة سبعة أفعال هي :

1 ـ " بَسْتَرَ ، وهو مأخوذ من بستور، صاحب الطريقة الخاصّة في التعقيم.

2 ـ بَلْوَرَ ، من البلّور، وهو معرّب قديم .

3 ـ بَلْشَفَ ، من البلشفيّة.

4 ـ تَلْفَنَ ، من التليفون .

5 ـ فَبْرَكَ ، من الفابريكة، والمراد بالفعل : صنَع الشيءَ بالآلة.

6 ـ جَبَسَ ، من الجبْس ، من موادّ البناء ، وهو معرّب قديم.

7 ـ كَهْرَبَ ، من الكهْرباء . وقد أقرّ المجمع تعريبَ الاسم الأعجيّ . ([1])

---

[1] - مجمع اللغة العربية بالقاهرة : كتاب في أصول اللغة ، الهيئـة العامّـة لشؤون المطابع الأميرية 1388 هـ / 1969 . ص 252

• تعقيب :

رغم وجاهة أعمال المجامع اللغوية العربية إلا أنها وقعت في أخطاء كثيرة تتنافى والبحث اللغوي العلمي المتواطئ عليه قديما عند جلّة العلماء العرب اللغويين الذين كانوا يتحرون الشائع المتداول على ألسنة الناطقين باللسان العربي، فلا يقررون ولا يحكمون إنما يعتمدون المنهج الوصفي الدقيق الموَثّق بالرواية الصحيحة ، وهو منهج يرتضيه البحث اللغوي الحديث عن قناعة علميّة، إذ اللغة ليست كالأشياء التي يتحكّم فيها الناس، وما أحسَن قول الزعيم الروسي استالين الذي قال : " لقد استطعنا أن نؤمّم كل شيء إلا اللغة فإننا لم نستطع أن نكمّم الأفواه ونروّضها على ما نحبُّ و نبتغي" ، إذ الأفواه تدفع والآذان تسمع، والألفاظ لا تؤخذ بالقياس ولا يستدلّ عليها بالعقل والإحساس، إنما هي نغم تقيّد وكلم تسمع فتقلّد . هذا المنهج العلمي تجاوزه بعض العلماء المحدثين لاعتمادهم قوانين صارمة معيارية لا تتناسب وطبيعة الألسن البشرية التي يعتريها التبدّل والتغيّر في البنية والأداء الصوتي والمفاهيم الدلالية المتطوّرة .

وقد أدرك هذا علماؤنا الأوائل ، فهذا ابن سلام الجُمَحيّ يقول : " ولكنَّ العربيةَ التي عَنَى محمّد بن عَلي، اللسانُ الذي نزل به القرآن ، وما تكلَّمت به العربُ على عهْد النبي (ﷺ) ، وتلك عربيةٌ أخرى غير كلامِنا هذا " . ([1])

وهذا اعتراف واضح بأن العربية وغيرها من اللغات تتطوّر من عهد إلى آخر فإذا كان محمد بن سلاّم الجمحيّ الذي عاش في أواخر القرن الثاني وأوائل الثالث (الهجري) أدرك هذه الفجوة بين العربية التي نزل بها القرآن والعربية في عهده، فكيف بمجامعنا اللغويّة التي يفصل بينها وبين العربية

[1] - ابن سلام الجمحيّ : طبقات فحول الشعراء. طبعة المدني القاهرة. السفر الأول ، ص 10

الأولى قرون أن لا يقرّوا هذه المصطلحات المعرّبة الوافدة من غير العربية، كالماركسية والكلاسيكية والديموقراطية والرومانطيقيّة ... والتي لها نظائر في العربية، بل في لغة القرآن ، فلفظة (الفِرْدَوْس) وردت في القرآن ، وهي لفظة أجنبية، فاشتقّ العرب منها فعلا فقالوا : [" فَرْدَسَ" الكرمُ : وسّعه وعرّشه]، فاستساغها المتكلّمون و وظّفوها في مخاطبتهم اليوميّة ، فقالوا عن الأندلس " الفِرْدَوْس المَفْقُود" .

لكنّ مجامعنا اللغوية الحديثة لم تقرّ مصطلحات كثيرة عرّبها باحثون لغويّون في اللسان العربي، فاكتفى أصحاب المجامع ببعضها ورفضوا بعضها الآخر. وهذه العبارة دالّة على ما نقول : " و من حيث الأفعال التي أوردها الأستاذ الباحث في غضون بحثه، مشتقّة أو مأخوذة من كلمات أعجميّة ، ترى اللجنة ألاّ يقرّ منها إلا ما صلُح صوغه العربي، وساغ في الذوق ، وشاع استعماله في الكتابة، والتأليف بوجه عامّ " . ([1]) ولم يستسيغوا المعرّب المأخوذ من غير لغة العرب فحسب ، بل استهجنوا أفعالا عربية وردت متعديّة والأصل في البنية اللزوم مثل : " استهدفَ الشيءَ جعله هدفًا له " . واستهدف في المعاجم فعل لازم معناه : انتصَبَ وارتَفَع ودَنَا " . ([2])

إن علماءنا الأوائل أطلقوا على هذا النمط " المولّد" ، ولم يتحرّجوا فيه ولا ناقشوه ؛ لأن القاعدة العامّة التي أوردها ابن جنّي في كتابه (الخصائص)، تقول : " إن الفعل إذا كان بمعنى فعل آخر، وكان أحدهما يتعدّى بحرف، والآخر بآخر ، فإن العرب توقع أحد الحرفين موقع صاحبه إيذانا بأن هذا الفعل بمعنى ذلك الآخر" . ([3]) وهذا دليلٌ على طواعيّة العربية وسعتها وقابليتها للتطوّر والنموّ ، وأنها صالحة لكل زمان ومكان لقدرتها على سبك

---

[1] - محمد النجار : مجمع اللغة العربية . (مرجع سابق) ، ص 251
[2] - محمد النجار : (المرجع السابق) ، ص 41
[3] - ابن جني : الخصائص . ج 2 . ص 209

الكَلِم الدخيلة وتذويبهـا في بنيـات صرفيـة عربيـة محضـة ممـا يضفـي عليهـا الصيغة العربية التي تُبعد عنها شـائبة العجمـة أو الغرابـة أو النشـوز . ففعـل (ناور) مثلا لا نحــسّ بغرابتـه عندمـا نسـمع قـول القـائل : إن الجيـش يقـوم بمناورات استعراضية لمدّة أسبوع في المنطقة الصحراوية مثلا . ولو أخذنا نشـتقّ لهذا الفعل سبلا وفق قوانين الاشتقاق المتعارف عليها في كتب النحو العربي لما وجدنا له أصلا يعود إليه. لكن فقهاء اللسانيات الحديثة يعرفون أنها مـأخوذة من فعل أجنبي هو (Manoeuvrer) بمعنى : أدار وحرّك وشغل الشيء . وتطـوّر معنى هذا الفعل فقالوا : ناور مناورة . وغالبا ما يدلّ هذا المصدر على التحرّش والتحدّي. ولا غضاضة في هذه الدلالة عند العامّة و الخاصّة . وكثـير مـن هـذه الصيغ شاعت و ذاعت ، مثل : " بَلْقَنَ السّياسةَ الجزائريّـةَ " ، مـأخوذ هـذا من منطقة البلقان ، للدلالة على الفوضى .

ولا يمكن حصْـرُ هذه الصيَغ ، لأنّها لا تخضع لقوانين مضبوطة . فقد اخذ العرب من السّبت ، وهو أحد الأيام السبعة " سَبَتَ " . قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَـنِ الْقَرْيَـةِ الَّتِـي كَـانَتْ حَـاضِرَةَ الْبَحْـرِ إِذْ يَعْـدُونَ فِـي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُـهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ ﴾. ([1])

ففعل (يَسْبِتُونَ) مأخوذ من السَّبْت ، ومعناه يدخلون في السـبت، كمـا يقال : (أَشْهَرْنَا) دَخلْنا في الشّهْر ، و (أَجْمَعْنَا) دخلْنا في الجُمُعَة ؟ ([2])

• رابعا ـ أَخْذ الأفعال من العضو للدلالة على إصابته .

تنبّه علماء العربية القدامى إلى أخذ بعض الأفعال من الأعضـاء المصابـة بالداء أو الجرح ، حتى لا يقال " مصاب في يده.أو في رأسه" . وقد حصـر لنـا ابن سيدهْ في معجمه الشهير (المخصّص) مجموعـة مـن الأفعـال المـأخوذة مـن

---

[1] - سورة الأعراف ، الآية 164

[2] - الطَبْرسي : مَجمع البيان في تفسير القرآن . ج9 ، ص 40

أسماء الأعضاء، نأتي على بعض منها لإفادتها في علم الجراحات والطبّ ، لكننا نحاول أن لا نتبع طريقته لما فيها من مشقّة، لأنه يتعرّض للراوي كالأصمعيّ، وأبي عُبيدة ، وابن السكّيت، وغيرهم . فممّا جاء عنه :

1 ـ رَأَسْتُهُ ، أَرْأَسُهُ : أصَبْتُ رَأْسَهُ.

2 ـ أَفَخْتُهُ ، أَفْخَأُهُ : ضَرَبْتُ يَافُوخَه.

3 ـ دَمَغْتُه ، أَدْمَغُهُ : ضربْتُ دِمَاغَهُ.

4 ـ جَبَهْتُهُ : صَكَكْتُ جَبْهَتَهُ.

5 ـ أَذَنْتُه : أَصَبتُ أُذُنَه. و في المثل : " لكلّ حابهٍ جوْزَةٌ ثمّ يُؤْذَنُ ".

6 ـ صَمَخَهُ ، صَمْخًا : أَصَابَ صِمَاخَهُ.

7 ـ صَدَغْتُهُ ، أَصْدَغُهُ صَدْغًا : ضَرَبْتُ صَدْغَهُ.

8 ـ أَنَفْتُهُ : ضَرَبْتُ أَنْفَهُ.

9 ـ خَرْطَمَهُ : ضَربَ خُرْطُومَهُ.

10 ـ نِبْتُهُ : أصبتُ نَابَه.

11 ـ ذَقَنْتُه ، أَذْقُنُه ، ذَقْنًا : ضَربتُ ذَقْنَهُ .

12 ـ حَلَقْتُه ، حَلْقًا : ضربْتُ حَلْقَهُ . و في الحدِيث : " عَقْرًا حَلْقًا " .

13 ـ عَضَدْتُه، أَعْضُدُهُ : أَصَبتُ عَضُدَهُ ، وكذلك إذا أعنتُهُ وكنتُ له عَضُدًا.

14 ـ تَرْقَيْتُه : أصبتُ تُرْقُوَتَه.

15 ـ صَدرتُه : أصبتُ صدْرَه.

16 ـ نَخرتُهُ : أصبْتُ مِنْخَرَه .

17 ـ نَغرتُه : أصبتُ نَغْرَتَه.

18 ـ حركتُ البعيرَ ، أَحْرُكُهُ ، حَرْكًا : أصبْتُ حَارِكَهُ .

19 ـ كَتَفْتُ الرّجلَ ، أَكْتُفُهُ ، كَتْفًا : ضَرَبْتُ كَتِفَه.

20 ـ قَرصتُه، أقرصُه : أصبتُ قَريصَتَه.

21 ـ ظهَرتُه : أصبتُ ظَهْرَه .

22 ـ مَتَنْتُه : ضربْتُ مَتْنَهُ .

23 ـ فقَرْتُه : أصَبْتُ فقَارَه .

24 ـ وَتَنْتُه : أصَبْتُ وَتِينَه . ومنْه الْوَتِينُ . ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْوَتِين ﴾ . الحاقة / 47

25 ـ يَدَيْتُه : أصَبْتُ يَدَه .

26 ـ جَنَحْتُه : أصَبْتُ جَناحَه . وهي اليَدُ .

27 ـ كَرْسَعْتُ : أصبْتُ كَرْسُوعَه . عن ابن السّكّيت : ضَربه فكوَّعه : صيّره معوّجَ الأكوَاع .

28 ـ بطنتُه، أَبطِنُه، وأبطُنُه، وقَلَبْتُه، أقْلبُه : أصَبْتُ قلبَه . وفأَدْتُه : أَفْأَدُه : أصبتُ فؤادَه . وطَحَلْتُه، أَطْحَلُه : أصبتُ طحالَه.

29 ـ رأيتُه : أصبتُ رئَتَه. و رَجلٌ مَرْئِيٌّ

30 ـ كبدتُه ، أكبُدُه : أصبْتُ كَبدَه . وكليتُه : أصبتُ كِليَتَه. ومَثَنْتُه : أصبْتُ مثَانَتَهُ .

قالوا : والمصدر كله (فَعْل)، إلاّ الطَّحل وحده فإنه بفتح الطاء . (وعن ابن السّكيت : هو الطَّحْل و الطحَل . وعن أبي عبيدة : ومن اشْتَكى من هذا شيئا قيل فيه : فُعِلَ . وكذلك كل ما كان في الجسد) .

31 ـ سَتَهتُه : ضربتُ أسْتَه

32 ـ ركبته ، أركُبه : إذا ضَربتُ ركبتَه، أو ضربتَه، أو ضربته بركبتك.

33 ـ سقته : أصبت ساقَه.

34 ـ عرقبتُه : ضربتُ عرقوبَه.

35 ـ نسيته : ضربتُ نَسَاه (عرق النسا).

36 ـ عقبتُه : ضربتُ عِقبَه.

37 ـ كعبته : ضربت كعبَه . وعن (ابن السكّيت : ظَبْيٌ مَرْجُولٌ : مصابُ الرجْل . ()[1]

اللاّفت للنظر أن كثيرا من هذه الألفاظ المأخوذ من العضو المصاب ما زالت مستعملة عند العامة فيقولون مثلا : فلان مصْدور، ومروي، ومركبن، على صيغة اسم المفعول . كما يقولون : بطّنتُه ، وكرسعته، ودمغته، وخرطمته على أنفه ، وغيرها . بمعنى أصبتُ بطنَه وكرسوعَه و دماغَه وخرطومَه ... لكن الكتب المدرسيّة لا تعير لهذه المفردات المأخوذة من الأعضاء بالاً، وربّما تسخر منها ، وتعتبرها لغوا .

[1] ـ ابن سيدة : المخصّص. دار الآفاق الجديدة بيروت، د.تا. ج6 . ص 104، 105، 106

IV - التّرجَمَة :

تعتبر الترجمة منبعـا ثريـا مـن أكـثر اليـنـابيع الـتي اعتمدهـا العرب قديما وحديثا في تنمية لغتهم وإثرائها وإغنائها بما ليـس عنـد العـرب من مفردات لمخترعات سـادت في الحضـارات السـابقة عـن الحضـارة العربيـة الإسـلامية ، كالحضـارة الهنديـة واليونانيـة والمصريّـة، فقـد ثَبَـتَ أنّ العـربَ اتّصلوا بغيرهم من الأمم قبل الإسلام ، ولا بدَع إنْ هُم تأثّروا بهـذه الحضـارات وأثروا فيها، في كل مناحي الحياة الاجتماعية ، ومنها وسيلة التخـاطُب الـتي هي اللغة . و تمّ ذلك عن ثلاثة سبُل هي :

1 - **جُنديْسابور :** وهي مدينة في خوزستان ، أسسها سابور الأول ، وإليهْ تنسب . يحكي القفطي : أن المدينة بُنيت على شكل القسطنطينية ، وأن أوّل من علّم الطبّ بها أطبّاءُ من الروم" ولما أقـاموا بهـا بـدؤوا يعلمـون أحداثـاً مـن أهلها، ولم يزل أمرهم يقوى في العلم، ويتزايدون فيه ، ويرتّبون قوانين العـلاج على مقتضى أمزجتهم حتى برزوا في الفضائل " . ([1])

فلا ريْبَ أنّ المصطلحَات العلميّة لم تكن بالعربية، إذ " كـانت تُـدْرَسُ في مدينة جُنديْسَابور الثقافةُ الهنديةُ، بجانب الثقافة اليونانية ، وكان يشـترك بعـض الهنـود في التدريـس باللغـة الفهلويّـة " . ([2]) إلا أننـا نجـد في بعـض الروايات " أن الحارث بن كلدة الثقفي طبيـب العـرب تعلّـم قبيـل الإسـلام في مدرسة جنديسابور ، وعالج بفارس ، وطبَّ بعضَ أجلاّء الفرس ، فأعطاه مالاً وجاريّةً، سمّاها الحارث سميّة، وهي أمّ زياد بن أبيه، ومات الحـارث في أول الإسلام، ولم يصحَّ إسلامُه ". ([3])

---

[1] - أحمد أمين : ظُهر الإسلام . مكتبة النهضة المصرية. د.تا. ج1 ، ص 255

[2] - المرجع السابق نفسه . ص 256

[3] - المرجع السابق نفسه . ص 256

وذلك لأن العربية لا تعاف الترجمة ولا تخشاها لشجاعتها، إنما تصبغها بصبغة عربية في أصواتها و أبنيتها ودلالاتها ، فقد أخذوا من الهند فعلا فقالوا : " هنّد الصّانعُ السّيفَ " إذا شحَذَه ، فالسّيف مُهنَّدٌ . ونجد في شعر الشعراء قبل الإسْلام لفظ " هنْد" ، كاسم علَم شائع في جنسه، دالّ على التأنيث.

2 ـ **حَرَّان** : و أما حرّان فمدينة في الجزيرة شمالي العراق ، وهي مدينة عربية قديمة، عاصرت اليونان والرومان والنصرانية والإسلام، فاختلطت بها اللغات لاختلاف الأجناس والعادات والعبادات، فكانت اللغة القبطيّة واليونانية والفارسية والعربية حديثَ القوم، وعرفت ازدهارا في الثقافة اليونانية أولا، ثمّ في الثقافة الإسلامية ثانيا لاتصالها بالخلفاء العبّاسيين الشغوفين بدراسة الثقافات كاليونانية وغيرها من الثقافات، وكان الأثر الأكبر في الرياضيات والهندسة والهيئة والتنجيم .

3 ـ **الإسْكَندريّة** : و أما الإسكندرية فعاصمة مصر اليونانية أو مصر الإفريقية ، وبها وُلد مذهب فلسفي يسمّى مذهب الإسكندريين أو الأفلاطونية الحديثة ، ومؤسّسه مصريّ هو (أفلوطين 205 - 269)، وهذا المذهب مدين بأفكاره لفلاسفة اليونان على اختلاف مشاربهم.

ولمّا جاء الإسلام، وبخاصة في العصر العباسي الأول، فقد ترجم العلماء كلَّ علوم اليونان إلى العربية بتشجيع من الخلفاء، فترجموا تآليف أرسطو ، وشروحَ الإسكندريين عليها، وبعضَ ملَفّات أفلاطون، وأهمَّ كتب جالينوس في الطّبّ ، وعلى الجملة فقد ترجموا كلَّ ما وصل إليه العقل اليوناني في العلم والفلسفة.

وظلّ الأدب اليونانيّ في منعة لم يقرْبه المترجمون ؛ لأن ترجمة العواطف ليست من السهولة بمكان ، يضاف إلى هذا ما تمتاز به الآداب

اليونانية من تقديس للآلهة وتعدّدها. وهو أمر تستهجنه الآداب العربية الإسلاميّة، المتّزنة الخاضعة لمبدإ التوحيد .

هذا وقد نهجت الترجمة العربية منهجين :

* **المنهج الأول** فطريٌّ طبيعيّ لا يخضع للقواعد والضوابط الشكليّة التي هجّنها ابن خلدون ، فقال : " لا تلتفتنّ في ذلك إلى خرفشة النحاة أهل صناعة الإعراب القاصرة مداركهم عن التحقيق ". ([1]) ، وإنما يتّبع القوانين الاجتماعية الجاريّة على ألسنة المتخاطبين عربا أو عجما .

والعرب بحكم موقعهم الجغرافي في آسيا واتصالهم بغيرهم عن طريق الأسفار والتجارة والمجاورة تأثروا بغيرهم في الخطاب ، فترجموا ما ترجموا وفق السليقة العربية، فكان : الكافور والزنجبيل والببَغاء من الهنود . والكوز والجرّة والإبْريق والخِوَان والقَصْعَة والكَعْك والسَّميذ من الفارسية. والصّراط و القِسْطاس والخَنْدَريس والقُمْقُم والدِّرهم والدّينار من اليونانية الرومية.

كما أخذوا من السريانية والنبطيّة والعبرية والآرامية ما أخذوا ، وصبّوا ذلك في نسيجهم اللغويّ العربي متبعين طريقتين :

1 ـ إما التعريب ، وهو الكثير ، قديما و حديثا.

2 ـ وإما الترجمة بما يضارعه في اللسان العربي.

* **المنهج الثاني**، علميّ، يخضع للقوانين العلميّة، وهو المعتمد عندما تذكر الترجمة العربية ، وقد ظهَرت آثارُه في الفنون العلميّة و الأدبيّة ، وتخلص من العفوية الساذجة التي يوظّفها العامّة في محاوراتهم ، كما كانت في المنهج الأول ، وقد أغدق على العربية الخيرَ الكثيرَ من المفردات والمصطلحات العلمية والفلسفية والدينية والصوفية ، ولمع مترجمون أكفّاء ساعدوا علماء الإسلام على

---

[1] - ابن خلدون : المقدّمة ، ص 1072

الجدل والبرهنة والسفسطة وطريقة الحجاج ، وغيرها مما كان عند العرب في القديم يعتمد على السليقة والبداهة . ويرى الأستاذ أحمد أمين (رحمه ا لله) في كتابه " ضحى الإسلام " أن الترجمة مرّت بأدوار ثلاثة هي :

- **الدور الأول :** من خلافة المنصور إلى آخر عهد الرشيد ، أي من سنة 136 إلى سنة 193 هـ ، وفي هذه الدور ترجم كتاب " كليلة ودمنة" من الفارسية، و " السنْدُ هندٌ " من الهندية. وترجمت بعض كتب أرسطا طاليس في المنطق وغيره . ومن أشهر المترجمين في هذا الدور ابن المقفّع في الأدب، وجرجيس بن جبريل، ويوحنّا بن ماسويه، وكلاهما كان طبيبا نصرانيا . وفي هذا الدور اتّصل المعتزلة بالكتب التي تُرجمَت .

- **الدور الثاني :** من عهد المأمون، من سنة 198 إلى سنة 300 هـ . وأشهر المترجمين في هذا الدور يوحنّا أو يحي البطريق (مولى المأمون)، وكانت الفلسفة أغلب عليه من الطبّ، وترجمَ كثيرا من كتب أرسطو ، وقسْطا من لوقا البعلبكّي ، عاش سنة 220 . وعبد المسيح بن ناعمة الحمصي ، عاش سنة 220 ، وحنين بن إسحاق ، توفي نحو 260 . وابنه إسحاق بن حنين، توفي سنة 298 . و حبيش الأعمش ابن أخت حنين ، وغيرهم.

- **الدّور الثالث :** من أتى بعد هؤلاء ، من أشهر المترجمين فيه مَتّى بن يونس ، كان في بغداد سنة 320 ، وسنان بن ثابت بن قرّة ، مات سنة 360. ويحي بن عَديّ سنة 364. وابن زرعة سنة 398 ، وأهمّ ما ترجَمُوا الكتبَ المنطقيّةَ والطبيعيّةَ لأرسطو ، وتفسيرها " . ([1])

---

[1] - أحمد أمين : ضحى الإسلام . مكتبة النهضة المصرية القاهرة 1961 . ج1 . ص 265 – 266

• إشكاليّة الترجمَة في العصر الحديث :

ولادةُ الترجمة الحديثة كانت عَسيرة ومائعَة، تختلف كلّ الاختلاف عن النّشأة الأولى التي عرفناها . وذلك لأن العرب لم يكونوا حاضرين زمن توالد هذه المصطلحات العلميّة والفنيّة والهندسية والصناعيّة ، فلمّا فاقوا وجدوا ركاما من الألفاظ و الأسماء والمصطلحات نتيجة الاختراعات والابتكارات ، ففزعو إلى الترجمة والتعريب بدون زادٍ متين ، وقديما اشترط الجاحظ في الترجمان شروطاً يعزّ مطلبها، ويعسر تحقيقها ، فقال : " ولا بدّ للترجمان من أن يكون بيانه في نفس الترجمة، في وزنه في نفس المعرفة، وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة و المنقول إليها، حتى يكون فيهما سواء وغاية . ومتى وجدناه أيضا قد تكلم بِلِسَانَيْن ، علمنا أنه قد أدخل الضيم عليهما، لأنّ كلّ واحدة من اللغتين تجذب الأُخرى ، و تأخذ منها، وتعترض عليها.

وكيف يكون تمكّنُ اللسان منهما مجتَمِعَتَيْن فيه، كتمكّنه إذا انفرد بالواحدة، وإنما له قوة واحدة ، فإن تكلّم بلغة واحدة اسْتُفْرِغَتْ تلك القوةُ عليها، وكذلك إن تكلّم بأكثر من لغتين ، على حساب ذلك تكون الترجمة لجميع اللغات ، وكلما كان الباب من العلم أعسرَ وأضيقَ ، والعلماء به أقل، كان أشدّ على المترجم ، وأجدر أن يخطئ فيه ، ولن تجد البتّة مترجماً يفي بواحد من هؤلاء العلماء " . ([1])

هذه المواصفات المستحيلة التوافر في الفرد الواحد، أعطتنا ترجمة مشوّهة متباينة التناغم بين شعب وآخر في البيئة الواحدة .

يضافُ إلى هذه المواصفات الفراغُ المهولُ في الواقع اللغوي بالثقافات

[1] - الجاحظ : كتاب الحيوان ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، دار إحياء التراث العربي بيروت ، د.تا. ص 76 – 77

الأجنبية، مما جعل العلماء يُفكّرون في حذق اللغات الأجنبية التي أنتجت هذا الزخم الجديد، فأنشأوا من أجل ذلك المجامع اللغوية، فكان أول مجمع لغوي علمي " نشأ بدمشق سنة 1918م ، ثم تلاه مجمع اللغة العربية بالقاهرة " سنة 1934، ثم تلاحقت المجامع تباعا في العراق والأردنّ والمغرب والجزائر بعناوين مختلفة.

يلاحظ على هذه المجامع أنها جاءت متأخرة جدّا ، وإلى جانب هذا التأخير فقدان التنسيق المحكم بين الواقع اللغوي، وما اصطلح عليه . لكنها جعلت من أولياتها تعريب المصطلحات للمخترعات الجديدة، وأسماء الآلات الحديثة، فعرّبت ما عرّبت منها غير أنها ظلت حبيسة النشريات والدوريات والقرارات، لأنها ابتعدت عن الواقع اللغوي المتداول بين أفراد المجتمعات العربية. على عكس النشأة الأولى للمصطلح العربي الذي انْتُزِعَ من صميم العربية المتداولة في الخطابات اليومية السائدة بين أفراد المجتمع العربي ، كما أن العربية حين التقت مع الثقافات الأخرى قديما كانت في أوج عزّتها ومنعتها، قادرة على الأخذ والعطاء والتأثير والتأثر، فغالبت ألسُنا كثيرة كاليونانية و الإغريقية و الهندية والفارسية فغلبتها و أثرت فيها . أما والحالةُ أنّ العربية أصابها ما أصاب الناطقين بها من استعمار بغيض عدو اللسان العربي الذي نزل به القرآن الكريم .

وعلى هذا الأساس نشأ طوفان من المصطلحات والأسماء مشوّهة الخلقة ومتعددة الجنسيات ، ونصّبَ أشباه المثقفين أنفسَهم مترجمين . كلّ واحد يدّعي صواب ترجمته، مخطئاً الآخرين، ونكتفي بمصطلح (Linguistique) الذي تباينت فيه الترجمة العربية، ووصلت إلى أكثر من ثلاثة وعشرين مصطلحا (23) ، كما أثبت ذلك الدكتور عبد السلام المسدّي .

وهذا لم يحدث أبدا في القديم، فالمصطلح ينشأ في المشرق، أو في

المغرب فيأخذ صفة الشيوع والذيوع في كل أنحاء الأقطار العربية، فلا تنازع ولا اختلاف، بل هناك توافق وائتلاف .

والسبب في ذلك الضعف المتناهي في الثقافتين العربية والأجنبية، وكذا الانبهار أمام هذا السيل المتلاحق في الابتكارات و الاختراعات الذي يتوالد في كل يوم، بل في كل ساعة، إن لم نقل في كل دقيقة وثانية، وقد شجّع هذا السيلَ التقدُّمُ الخارق للعادة في الإعلام الآلي و الأنترنيت، وكلّ وسائل الاتّصال، فغزتنا هذه المبتكرات بقوّة تطوّر الوسائل الإعلامية كالشبكات الإلكترونية، والتلفزة، والمقعّرات الهوائية، والهاتف النقال، وغير هذه ممّا استدعى جهودا مختلفة في اللغات العالمية أجمعها ، قديمها وحديثها، لأن الاختراع لا يتقيد بلسانٍ دون لسانٍ.

V ـ المصطلح العَربي وَ تطوّره :

ـ ديباجَـة :

سبحـان مَـن يهَب القوة والمناعة لمن يشاء ، فقـد وهَـب العـزّة لمـادة " ك ل م " مهما تقلّبت حروفها وتشققت تصاريفها واختلفت هيئاتها . بهـذا التعريف بدأ ابـن جِـنّي حـدّ الكـلام بقولـه : " وأمـا (ك ل م) فهـذه أيضـا حالها، وذلك أنها حيث تقلبت فمعناها القوة والشدة " [1] فالألفاظ تلفظ هـواء فارغا، منها ما تذهب مع الرياح و الهواء السائل في الفضاء، ومنها مـا يكتـب لها البقاء والثبات على مر الدهور والسنين ، فتنقش على الجـدران ، أو تزبـر في الألـواح المزبـورة والصحـف المسطورة فيتناقلهـا الخلــف عــن السـلف ، ويتـوارثها لاحـق عن سابق ، وما المصطلَح إلا مــن هـذا القَبيـل الأخـير الـذي كُتبتْ له السلطة والعزة، وأصبح علما بالغَــلَبَة، بــعد أن كــان مجـرّدَ اسم مفعول لفعل " اصطلح" علـى وزن افتعـل المزيـد بـالألف والتـاء المبدلـة طـاء ، لوقوعها بعد حرف الصــاد الـذي هـو أحـد حـروف الإطبـاق، فتقـول اصطلـح يصطَلِح اصطلاحًا.

فالفاعلُ هو مُصْطَلِح واللفظ مُصْطَلَحٌ عَليه، هذا هو تحديد النحوي لفعل " صلح " . أما المعجمي فيحدد المصدر من " اصطلح" بهذا التعريف، فيقول : " فالاصطلاح عبارة عن اتفاق قـومٍ علـى تسـمية الشـيءِ باسـم مَـا، ينقـل عـن موضعه الأول " . وأيضا :

– " الاصطلاح إخراج اللفظ من معنى لغوي إلى آخر لمناسبة بينهما" ، وقيل:

– " الاصطلاح اتّفاق طائفة على وضع اللفظ بإزاء المعنى " . وقيل :

---

[1] - ابن جني الخصائص . دار الكتب بمصر 1952. ج 1 ، ص 13

- " الاصطلاح : إخراج الشيء من معنى لغوي، إلى معنى آخر لبيان المراد" . وقيل :

- " الاصطلاح : " لفْظ مُعَيَّنٌ بينَ قوْم مُعَيَّنِينَ " . ([1])

هذه التعريفات تتضمّن أن مردَّ الاصطلاح هو نقل اللفظ من وضعه الأصلي ، إلى وضع ثانٍ عُرفي ، يتمّ التوافق عليه بين طائفة معيّنة، في علم مُعين ، فيكتسب الوضعُ الثاني دلالة إجماع مُطلق ، لا دلالةَ مجاز مقيّد، فيطّرد استعمالا وشيوعا .

• **طبيعةُ النشأة :**

يُرسَل اللفظ إرسالا لا يقصد لافظُه من ورائه شيئا، سوى ما يتناسب والمقام . فلم يكن عليٌّ بن أبي طالب يرمي من وراء قوله لأبي الأسود الدُّؤلي ـ على بعض الروايات ـ : " انْحُ هَذَا النَّحْوَ " أن يُصبحَ هذا المصدر عِلْمًا، له خطورته وأبعاده ، وتنشأ حوله المدارس المختلفة، ويتخاصم الأقوام حوله، ويتحاكم إليه الفقيه، والأصولي، والفيلسوف، وتؤلف الكتب الضخمة، وتتوسع بالشروح والتعاليق ، وتتكون مكتبة عربية تحت هذا المصدر" النَّحْو" لها شأنها . وما قيل عن النحو يقال عن الفقه، والفلسفة، والصلاة، والزكاة، والحج ، و غير ذلك من المصطلحات .

بهذه العفويّة تأسّس المصطلح التراثي، واشتهر و ذاع، وتنوع بتنوع العلوم النظرية والعملية، ونما بنمو الحضارات والاختراعات، فكلما جدّ جديد إلاّ و اصطلح على لقب له، كمصطلح خاص به، لا يتناول غيره . هذا ما حصل في المصطلح العربي في التراث الإسلامي فلم يكن للعرب أصُولٌ يراجعونها ولا كتب يقرأونها ، فلمّا جاء الإسلام ازدهرت الحضارة ، وتنوعت

[1] ـ الجُرجَاني أبو الحسن علي بن محمد بن علي : التّعريفات. الدار التونسية للنشر. ص 16

المعارف ، وامتزج العـرب بالحضـارات السـابقة، فاحتـاجوا إلى مصطلحـات، تعصم معارفهم من التداخل ، فكان مصدرُ المصطلحات القرآنَ الذي هزّ الأفكـار العربية، وجعلها تتفاعل مع القيم الجديدة بمصطلحات جديدة لم تكن معهودة من قبلُ لديهم ، فالقرآن مأخوذ مـن مـادة [ق ر أ] ( )[1] ، يقـال : " أقـرأتِ المرأةُ ، فهي مُقْـرىء إذا حَـاضَتْ ... وذلـك لاجتمـاع الـدّم في الرحـم". ( )[2] . والقُرْءُ من الأضداد، يصلح للحيـض والطهـر، ومـن معانيـه أيضـا الاجتمـاع ، ومنه: قرأت القرآن لاجتمـاع حروفـه، و مـا قـرأت الناقـة سَـلاً قـطّ ؛ أي لم يجتمع رحمها على ولد قطّ . قال عَمرو بن كلثوم :

ذِرَاعَيْ عَيْطَلٍ أَدْمَاءَ بِكْرٍ   هِجَانِ اللَّوْنِ لَمْ تَقْرَأْ جَنِينَا " . ( )[3]

هذا هو المعنى اللغوي فأين هو من دلالة مصطلح " القرآن " الذي أخـذ أبعادا اصطلاحية ابتعدت كل البُعْـد عـن الدّلالـة اللغويـة، وفـاض القـوم فيـه وعرّفوه بأنه " الكتاب المنزّل على الرسول (ﷺ) المكتوب في المصاحف، المنقـول نقلا متواترا بلا شبهة" . ( )[4]

وهكذا ينشأ المصطلح عفويا ثم يكتسب صفة التمكن والثبـات ، وتعفـى المادة اللغوية إعفاء كليـا، وتنمحـي صورتهـا مـن أذهـان المتعـاملين مـع اللفـظ المصطلح عليه، فقول أهل اللغة : القرآن مصدر كـالكفران والرجحـان لا أحـد يتخيله ؛ وإنما أصبح هذا المصطلح علما للقرآن تمييزا لـه عـن الكتـب المنزلـة على الرسل كالتوراة والإنجيل ، والزبور.

---

[1] - يخالفُ الشافعيّ هذا الرأي . " قـال الشـافعيّ : وقـرأت علـى إسمـاعيل بـن قسطنطين ، وكان يقول (القران) اسم وليس بمهموز ، ولم يؤخذ من (قرأت) ، ولـو أُخِـذ مـن (قـرأت) لكان كل ما قرئ قرآنا ، ولكنّه اسم للقران ؛ مثل التوراة و الإنجيل، يَهمِز (قرأت) ، ولا يهمِز (القران) . الشافعي : الرسالة. ص 14 ، هامش رقم 4 .

[2] - الطبرسيّ : مجمع البيان ، ج2 ، ص 226 ، المجلد الأول .

[3] - نفس المرجع والصفحة.

[4] - الشريف الجرجاني : التعريفات . ص 92

وقد يلمح فقهاء اللغة تقاربا خفيا بين المعنى الوضعي، الذي يعني الجمع و ما يحويه القرآن من جمع للديانات السابقة له، " قال بعض العلماء تسمية هذا الكتاب قرآنا من بين كتب الله لكونه جامعا لثمرة كتبه بل لجمعه ثمرةَ جميع العلوم " . ( )[1]

هكذا نشأت المصطلحات العربية، وفق ما طرأ على الحياة العربية، من حاجات لابتكار ألفاظ تتناسب وما جدّ في المجتمع العربي الإسلامي من علوم ، فراح العلماء يتواطأون على مسميّات جديدة، ويتواضعون عليها كل في حقله الخاصّ، و أهم الطوائف الأولى تجسّمت في :

1 ـ **القرّاء**، وهم الذين انصبت أعمالهم على القرآن، فاهتموا بداءة باللغات؛ أي اللهجات فكانت القراءة الشاذة، والمطّردة، والنادرة، ثم في الأصوات ، فكان المجهور، والمهموس، والشديد، والرخو، إلى غير ذلك .

2 ـ **الفُقَهاء**، فكان الحلال، والحرام، والمباح، والمكروه، والمندوب، والوضوء والغُسل، والفَرض ، والواجب ، والمستحب ، إلى غير ذلك .

3 ـ **النُّحَاة**، فكان الفعل، والفاعل، والمفعول، والمرفوع، والمنصوب،والمجرور، والمعرب، والمبني، والظرف، والمظروف، مما جعل الأعرابي يقول : " يتكلمون بلغتنا بما ليس في لغتنا " .

4 ـ **رجال الحديث** ، فكان السند، والمتن، والمرسل، والصحيح، والضعيف، والموضوع، ولعلّهم كانوا أسبق إلى استعمال لفظ " مصطلح" ، فكان مصطلح " علم مصطلح الحديث" هو الأول .

5 ـ **المتكلمون** ، فكان الحشْر، والميعَاد ، والجوْهر، والعَرَض ، والحُدوث، والعَدم، والحِساب، والصِّراط ، إلى غير ذلك .

---

[1] ـ الراغب الإصفهاني : مفردات ألفاظ القرآن . ص 414

وفي هذه المرحلة التي نشأ فيها المصطلح بطريقة عفويّة نلاحظ أمرين :

أحدهما : أن هذه المصطلحاتِ ليست لها حدود بين الأقوام. فالاطّراد والشذوذ يستعملهما النحوي و الفقيه والمحدِّث، وما قيل عن الاطّراد والشذوذ يصدُق على القياس والعلّة و المعلول ، والسبب والمسبّب . إلا أن طريقة التناول تختلف بين جماعة وأخرى ، فالقياس النحوي ليس هو القياس الفقهي ، فالاتفاق في المصطلح ، والتباين في التناول ، والغرض المقصود، والمنهج المتّبع.

وثانيهما : انعكاس المصطلح على الأعمال الإنشائية لدى كلّ فريق، مما نشأ عنه أدب اللطائف والنوادر التي تميّز هُوِيّة الكاتب، و تشفّ عن مذهبه الذي يتعاطاه باستعمال المصطلحات الخاصّة بفنّه، أو بمذهبه، ولذلك نجد ضبطاً للمصطلح المتّبع لدى كلّ فريق.

- **المصطلحات الحديثة :**

تفاقمت المصطلحات في النصف الثاني من القرن العشرين ، و أصبحت الشغل الشاغل لفقهاء اللسانيات ، وتنوّعت بتنوّع المستحدثات التي لم تكن معهودة من قبل، فقانون توزيع الأعمال واختلاف الورشات الصناعيّة جعلت المصطلحات تتكاثر و تتباين فيما بينها ممّا جعَل المصطلح يختلط مع الاسم الخاصّ بالآلة. إذ المصطلح، كما عرّفناه، هو انتقال معنى لفظ خاصّ إلى معنى عامّ ، تتفق عليه جماعة من العلماء ذوي الاختصاص في موضوع ما . فأخصّ مميّزاته : الشمولُ والعمومُ ، وعدم وجود قاعدة ضابطة لقياسه . فمصطلح " الجبر Algèbre" الدال على علم الرياضيات والحساب هو في أصل وضعه اسم عَلَم (لجابر بن حيّان) مخترع هذا العِلْم . فهو اسم دالّ على مسمّى بعينه، بيْد أن هذه الدلالة الخاصّة انتقلت من الخصوص إلى العموم . فمصطلح " الجبر Algèbre" يوظّفه العالم الرياضي العربي وغير العربي ، ولا يخطُر بالبال أنه اسم علم في العربية منقول من وصْف فعل (جَبَرَ ، يَجْبر،

فهُو جابرٌ) اسم فاعل، ثم تنوسي الوضع الأول تماما، مثله مثل : سالم و سالمة، ونائل و نائلة ، وغير ذلك مما هو معلوم في الكتب النحويّة.

وهكذا في المصطلحات الحديثة التي شملَت حقولا كثيرة ، ونكتفي بأحدث مصطلحِ الأنترنيت (Internet) ، وهو عبارة عن شبكة متعدّدة التخصّصات، متصل بعضها ببعض، وتنقسم إلى مسمّيات لا مصطلحات :

1 ـ شَبَكة محلّية.

2 ـ شبَكة واسعة المدى .

ويدخل تحت هذا المصطلح (Internet) أشياء لا حصر لها من أسماء الآلات. هذا أهمّ مصطلح مستحدث ، ونحن نلاحظ أن لا خيار لنا في هذا المصطلح ، قبلناه ، ولم نسأل عن دلالته الأصليّة ولا تركيبته، مثلما فعل غيرنا في مصطلح " الجبر" .

وعلى هذا الأساس تراكمت المصطلحات الحديثة التي منها ما هو مترجم، كمصطلحات : علوم الإدارة ، والاقتصاد، والاجتماع، والصحّة، والسكن، والتجارة، والإعلام، والتربية، والفلاحة، والتنجيم، والبحريّة ... ومنها ما هو معرّب، كالانتروبولوجية، والسيكولوجية، والفيزيائة، والموفولوجية، وغير ذلك.

VI ـ الْمُعَرَّب :

العربية هي هذا اللسان الذي نزل به القران ، والتي تضرب بجذورها في أعماق التاريخ الأول ، والعربية لا نعرف بدايتها الأولى بالضبط . بَيْد أننا نعرف هذا التراث الشعري والنثري الذي أنتجه العرب قبل الإسلام بزمن قليل، ولا ريب أنه ضاع منه ما ضاع بدليل مقولة أبي عمرو بن العلاء : " ما انتهى إليكم مما قالت العربُ إلا أقلّه ، ولو جَاءكم وافراً لجاءكم علمٌ وشعر كثير" . [1]

لكن بعد نزول القران تداول الأقوام مفرداته بالبحث والتنقيب والتأصيل والتفريع ، فضبطوا البنى والأوزان ، وعرفوا الأصيل من الهجين، والمشتق من الدخيل ، فكان أن نشأ الخلاف بينهم : هل في القرآن من الألفاظ ما ليس بعربي ؟ .. فكانت ثلاثة مذاهب تتنازع الاهتداء :

1 ـ مذهب أبي عبيدة الذي يأبى أن يكون في القرآن لفظ أعجمي ، ومن قال بذلك فقد أكبر القولَ على ا لله.

2 ـ ومذهب ابن عباس ومجاهد، وغيرهما من الصحابة الذي يؤكد وجود ألفاظ من غير لغة العرب .

3 ـ وأخيرا مذهب أبي عُبَيْدٍ الذي يوفّق بين الرأيين .

هذا وقد تعرض لهذا الأمر كل العلماء العرب الذين تناولوا تفسير القرآن ، ونكتفي بما جاء عند الجواليقي ، حيث يقول : " فأما ما ورد منه في القرآن ، فقد اختلف فيه أهل العلم ، فقال بعضهم :

ـ كتاب ا لله تعالى ليس فيه شيء من غير العربية .

---

[1] ـ ابن سلام الجمحي : طبقات فحول الشعراء . ج 1 ، ص 25

أخبرني غير واحد عن الحسَن بن أحمد عن دعلج عن علي بن عبد العزيز عن أبي عُبيد قال : سمعتُ أبَا عُبَيدة يقول من زعَم أن في القرآن لسانًا سوى العربية فقد أعْظم على الله القولَ ، واحتج بقوله تعالى : ﴿ إنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبيًّا ﴾ . ( )[1]

قال أبو عبيدٍ : و روي عن ابن عباس ومجاهد وغيرهم ، في أحرف كثيرة : أنّه من غير لسان العرب، مثل " السجِّيل" ، و" المِشْكاة" و " اليَمّ"، و " الطّور" و " أباريق " و " اسْتَبْرَق " وغير ذلك .

فهؤلاء أعلم بالتأويل من أبي عبيدة . ولكنهم ذهبوا إلى مذهب ، وذهب هذا إلى غيره . وكلاهما مصيب إن شاء الله تعالى .

وذلك : أن هذه الحروف بغير لسان العرب في الأصل ، فقال أولئك على الأصل ، ثم لفظت به العربُ بألسنتها فعرّبتْه ، فصار عربيا بتعريبها إياه ، فهي عربية في هذه الحال ، أعجمية الأصل . فهذا القول يصدق الفريقين جميعا " . ( )[2]

هذه مجمل الآراء فيما دار من جدل حول المعرب أو الدخيل في القرآن. أما في غيره ، فلا مَحَاجّة في وقوعه، وقد عرفه العلماء بأنه اللفظ الذي " استعملته" العرب من الألفاظ الموضوعة لمعان في غير لغتها . " قال الجوهري في الصحاح : تعريب الاسم الأعجمي أن تتفوَّه به العرب على منهاجها ، تقول : عرَّبَتْهُ العَرَبُ أو أَعْرَبَتْهُ أيْضًا " . ( )[3]

إن هذا الاستعمال ولّدته الحاجة للتعبير عن أشياء لا أسماء لها في

---

1 - سورة الزخرف ، الآية 03

2 - الجواليقي : المعرب . تحقيق أحمد محمود شاكر 1309 . أعيد طبعه بالأوفست في طهران 1966 . ص 4 – 5

3 - السيوطي : المزهر . ج 1 ، ص 268 .

لغتهم ، غالبا ما تكون طارئة على البيئة العربية ، فيضطر العرب لملء هذه الفراغات ، و وضع أسماء لها . أو تنتج من التخالط والاحتكاك بين الشعوب والأمم ، وتمتاز بمجالات خاصة كالألفاظ الدالة على التديُّن والدِّين تستمد من اللغات التي نزلت بها الكتب السماوية ، كالسّريانية ، والآرامية ، والعبرية ، والألفاظ الدالة على العقود والتجارة من الفرس ، والألفاظ الدالة على الحضارة من الروم . والألفاظ الدالة على الفلسفة والمنطق من اليونان ... و هلم جرا في كل الألفاظ الدخيلة على اللسان العربي .

أولا ـ الأصوات : أهم شيء لفَت أنظارَ العلماء العرب هي الأصوات اللغوية ، لما لهذه الأصوات من تباين في اللغات ، فقد توفرت العربية على حروف لا مثيل لها في اللغات الأخرى ، وقد يقع العكس بأن تتوفر اللغات الأخرى على أصوات لا مضارع لها في العربية ، فتوقّف العلماء ، يلاحظون ويغيّرون الحروف ، ويبدلونها ، ويدعمونها ، ويحذفونها حتى تنسجم ونظامهم الصوتي .

الأمر الثاني : هي البُنى والصيغ ، فألحقوا ما ألحقوا بأبنيتهم ، وتركوا ما تركوا عملا بترك العلامة "علامة " .

والأمر الثالث : المعنى أو الدلالة الأصلية ، والتي دلت عليها بعد التواضع الطارئ ، وإذا تمت هذه الخطوات الثلاث يصبح اللفظ الدخيل له ما للفظ العربي " لَفْظٌ حَامِلٌ ، وَمَعْنًى بِهِ قَائِمٌ ، و رِباطٌ لَهُمَا نَاظِمٌ " . ([1])

والأمر الذي ينبغي أن نتحفّظ منه أن ما أثبتناه جاء متأخرا عن زمن حدوث المعرّب ، إذ العربي كان يتفوّه وفق طبيعته وسليقته دون التفات للأصوات ، والبنى ، والدلالات ، والذي استنتجناه يتوافق و ما جاء في الكتاب

---

[1] - الخطابي : بيان إعجاز القرآن . ص 24

لسيبويه ، والذي يتوجّب علينا أن ننقل البـاب المتعلـق بـالأعجمي بأكملـه ، لأمور أهمها : أن اللفظ الأعجمي كان من اهتمامات العلمـاء منـذ الوهلـة الأولى للدراسات اللغوية . و ها هو ذا سيبويه يقول :

" هذا باب ما أعرب من الأعجمية " .

اعلم أنهم مما يغيرون مـن الحـروف الأعجـمية مـا ليـس مـن حروفهـم البتة، فربما ألحقوه ببناء كلامهم ، و ربما لم يلحقوه . فأما مـا ألحقـوه ببنـاء كلامهـم (فَدِرْهَـم) ألحقـوه ببنـاء (هِجْـرَع) ، و (بَهْـرَج) ألحقـوه بسَـلْهَب . و (دينـار) ألحقـوه بديمَـاس . و (ديبـاج) ألحقـوه كذلـك . وقـالوا (إسـحاق) فألحقوه بإعصار، و (يعقوب) فألحقوه بيَرْبُوع . و (جورب) فألحقوه بفوعـل . وقـالوا: (أجـور) فـألحقوه بعـاقول . وقـالوا : (شُـبَارق) فـألحقوه بعذافـر. و (رُسْتاق) فألحقوه بقرطاس . لما أرادوا أن يعربوه ألحقـوه ببنـاء كلامهـم كما يلحقون الحروف بالحروف العربية .

وربما غيّروا حالـه عن حالـه في الأعجميـة مـع إلحـاقهم بالعربيـة غـير الحروف العربية، فأبدلوا مكان الحرف الذي هو للعرب عربيا غـيره . وغـيروا الحركة وأبدلوا مكـان الزيـادة ، ولا يبلغـون بـه بنـاء كلامهـم، لأنـه أعجمـي الأصل ، فلا تبلغ قوته عندهم إلى أن يبلغ بناءهم . وإنمـا دعـاهم إلى ذلـك أن الأعجمية يُغيِّرها دخولُها العربية بإبدال حروفها، فحملهم هذا التغيير على أن أبدلوا و غيّروا الحركة كما يغيرون في الإضافة إذا قـالوا : هـنيّ نحـو زبـانيّ وثقفي . وربـما حـذفوا كما يحـذفون في الإضافة، و يزيدون كما يزيـدون فيمـا يبلغون به البناء، وما لا يبلغون به بناءهم ، وذلك نحـو : آجُـرّ، و إبْرَيْسَـم، وإسمَاعيل، وسراويل، وفَيْروز، والقهرمان .

وقد فعلوا ذا بما ألحق ببنائهم وما لم يلحق ، من التغـيير والإبـدال، والزيادة والحذف، لما يلزمه مـن التغيـير. وربمـا تركـوا الاسـم علـى حالـه إذا

كانت حروفه من حروفهم ، كان على بنائهم أو لم يكن ، نحو : خُرَاسَان ، وخُرَّم ، والكُرْكم . وربما غيّروا الحرْف الذي ليس من حروفهم ولم يغيروه عن بنائه في الفارسية نحو : فِرِنْد ، و بَقّم ، و آجُر، وجُرْبُز " . ( )[1]

يرسم لنا سيبويه مشروعا لتعريب الكلام الأعجمي ، وكيفية التعامل معه بالزيادة والنقصان ، والتبديل والتغيير، وكأنه شيء عادٍ ومتعارفٌ عليه . وسار على هذا النهج العلماء العرب من بعده ، فألّف الخفاجي كتابه : "شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل" ، وألف الجواليقي " المعرّب من الكلام الأعجمي " .. فاعتمده العلماء العرب كمرجعية لكلام المعرب ، ولذا يحسن بنا أن نثبت النص التالي منه : " هذا الكتاب نذكر فيه ما تكلمت به العرب من الكلام الأعجمي ، ونطق به القرآن المجيد، وورد في أخبار الرسول (ﷺ) والصحابة والتابعين ، رضوان الله عليهم أجمعين، وذكرته العرب في أشعارها وأخبارها، ليعرفَ الدخيل من الصريح .

ففي معرفة ذلك فائدة جليلة، وهي أن يحترس المشتق فلا يجعل شيئا من لغة العرب لشيء من لغة العجم " . ( )[2] نستفيد من هذا النص أن المعرب ثابت في القرآن والحديث وكلام الصحابة والتابعين ، وفي أشعار العرب وأخبارها، ومعرفته ضرورية لمعرفة الدخيل من الأصيل ، ونضيف إلى هذا أن صحة نسبته إلى العرب دليل على اتصال العرب بغيرهم من الشعوب والأمم، التي عاصرتهم، فتلاقحَت اللغات، ولكن الدخيل يبقى مبتور الأصل.

قال أبو بَكْر بن السراج في رسالته في الاشتقاق : " مما يحذر منه كل الحذر أن يشتق من لغة العرب لشيء من لغة العجم ، فيكون بمنزلة من ادّعى أن الطيرَ ولدُ الحوت " . ( )[3]

---

[1] - سيبويه : الكتاب . تحقيق عبد السلام محمد هارون . ج 4 . ص 303 – 304

[2] - الجواليقي : المعرب . ص 3

[3] - الجواليقي : المعرب . ص 4

وللمعرب فوائد لغوية لا تحصى، إذ تعتبره العربية بمثابة النافذة المفتوحة على الألسن المختلفة، وذلك لأن " العرب العاربة قد اختلطت بسائر الألسنة في أسفارهم ، فعلِقت من لغاتهم ألفاظا حتى جرت مجرى الفصيح ، واستعملوها في أشعارهم ومحاوراتهم ، ولهذا نزل بها القرآن" . (1)

وللعربية عبقريتها الخاصة التي تذلّل بها الكلم، وتطوعها للصياغة العربية، والمعرّب لا يختص بزمان دون زمان ، ولا بمكان دون مكان آخر، فالتعامل معه يظلّ في ديناميكية متواصلة عبر الأجيال والأجناس، ناهيك على أنه من الأهمية بمكان، بدليل أن المجامع العربية أولته عناية خاصة، وأفردت له أعدادا خاصة من مجلاتها في القاهرة ودمشق وبغداد في بداية أعمالها الأولى .

وأنجزت قراراتٍ كثيرةً في شأن التعريب والاشتقاق . ولسنا بصدد نقدها أو توجيهها و ملاحظة الخطأ و الصواب، وإنما لنبرهن على حاجة الناس إلى المعرّب، ودلالته المتجدّدة والمتطورة .

ولنا في الحضارة العربية الدليل الأمثل على أنه أدى خدمة للمجتمع العربي في إثراء القاموس العربي في مختلف المجالات العلمية، والاجتماعية، والسياسية. وكانت العامة أسرع وأدقّ في استعمال المعرّب لما له من رواج في معاملاتهم اليومية ، فسرعان ما يعرّبون الألفاظ ، وليس ببعيد عنا ما نشاهده في مجتمعنا العامي الجزائري، لما يمتازون به من بقايا السليقة العربية ، و الفطرة الإلهية الكامنة في نفوسهم، فيقولون : شَنْبَر و شَنَابِر، فيُفْردون ويجمعون دون أن يعلموا أن لهذه الأمثلةِ نظائرَ في البنى العربية، مثل : عَنْبَر و عَنَابِر ، و عَسْكَر وعساكر . وقالوا : فِلْم و أفْلام ، كما قالوا : قسْم و أقْسام ، و رطْلٌ و أرطَال ، وهو نفس المسْلك الذي سلكه العرب قديما، ومن

---

1 - طاش كبرى زادهْ : مفتاح السعادة ، ومصباح السيادة . ج 2 . ص 375

ثم يتأصَّلُ المعرّب حتى يُنسى مصدره الأصلي بتاتا . فمن منّا يشكّ في عُجمة التلميذ و الأستاذ، والفيلسُوف، والقنْطار، والدِّينار، والدِّرْهم، والصَّلاة، والصراط ، وغير ذلك من الألفاظ التي تمّ تعريبها من لغات أخرى ، و إدماجها في العربية منذ زمن بعيد، وتعامل معها الناس في مخاطباتهم، فنَمَتْ بها العربيةُ، وتمكّنت من صياغتها صياغة عربية.

أما العلماء العرب في مجامعهم فقد التزموا مذاهب التعريب، كما تركها لهم الأوائل ، فكانت خطواتهم بطيئة لأنها تستنتجُ من خلف المكاتب وبطون الكتب ، وأبهاء الصالونات الفخمة. ومنذ القديم ضاق الشعراء بتشديدات المستعربين ، حيث يقول أحد هم :

" مَاذَا لَقِينَا مِنَ الْمُسْتَعْرِبِينَ وَمِنْ قِيَاسِ نَحْوِهِمْ هَذَا الذِي ابْتَدَعُوا

إِنْ قُلْتُ قَافِيَةً بِكْرًا يَكُونُ بِهَا بَيْتٌ خِلاَفَ الذِي قَاسُوهُ أَوْذَرَعُوا

قَالُوا لَحَنْتَ وَهَذَا لَيْسَ مُنْتَصِبًا وَذَاكَ خَفْضٌ وَهَذَا لَيْسَ يَرْتَفِعُ

وَحَرَّضُوا بَيْنَ عَبْدِ اللهِ مِنْ حُمُقٍ وَبَيْنَ زَيْدٍ فَطَالَ الضَّرْبُ وَالْوَجَعُ" ([1])

والألفاظ التي يكتب لها البقاء والدوام هي التي يكثر دورانها على ألسنة الناس ، لأنهم لا ينتظرون قرارات المجامع اللغوية وتوصياتهم ، إلا ما كان من المصطلحات العلمية المعرّبَة التي لاشَأنَ للعامة بها ، فهي من مكتسباتهم ، فمنذ عهد الجواليقي الذي رسَم تصميما محكَما لمعرفة الدخيل من الأصيل في بابين :

* **أحدهما** يتناول فيه طريقة العرب في تعريب الألفاظ ، وهو لا يخرج عما رأيناه عند سيبويه، إلا أنه أشدّ منه تهذيبا وتنظيما.

---

[1] - ابن جني : الخصائص . ج 1 . ص 240

* وثاني الأبواب في معرفة المعرّب من خلال تأليف الحروف، وقد طرقه سيبويه من قبل، غير أن منهجية التأليف، والإحصاء، والتبويب ، واضحة عند الجواليقي ، فقد ضبط الألفاظ المعرّبة إلى عصره ، ورتبها وفق حروف المعجم العربي ، وقدم للكتاب بمقدمة لا تقلّ أهميّةً عن المقدّمات المعاصرة ، إذن فلسيبويه فضلُ السّبق ، ولمن جاءَ بعده فضلُ التنظيم و التبويب .

• طرُق معرفة الدّخيل من الأصيل :

يُجمع العلماء العرَب على مقاييس و ضوابط بها يميّزون اللفظ الدخيل من الأصيل ، ويعودُ أغلبها إلى الأصوات اللغوية، من ذلك أن الجيم والقاف ما اجتمعا في كلمة واحدة ، إلا وهذه الكلِمة مُعربّة " كالجُوق " ، و" المنجَنِيق " ، و" أَجْوَق" .

ومنها أن الصاد والجيم ما اجتمعا في كلمة إلا و كانت معرّبة، مثل : " الصَوْلَجَان " و " الصّنّاجَة " .

.ومنها أنه لا يوجد في أصول بنية العربية اسم فيه نون بعدها راء إلا ودلّ على أنه معرّب ، مثْل : " نَرْجِس "، و" نَرْد" ، و" النَرْمَقُ" فارسي معرّب .

ومنها أن كلّ كلمة فيها زاي قبلها دال إلا و هي دخيلة، من ذلك " الْهِنْدَاز" ، و" المُهَنْدَز" .

والملاحظة العامة التي تنتظم هذه الأمثلة هي تقارُب مخارج هذه الحروف بعضها من بعض ، ولذا عقّب الجواليقي على هذه الضوابط بقوله : " فأما أمثلة العرب فأحسنُها ما بُني من الحروف المتباعدة المخارج . وأخفّ الحروف حروف الذلاقة وهي ستة : ثلاثة من طرف اللسان ، وهي : الراء، والنون ، واللام ، وثلاثة من الشفتين ، وهي : الفاء، والباء، والميم . ولهذا

لا يخلو الرباعي والخماسي منها ، إلا ما كان من " عَسْجَد" فإن السين أشبهت النون للصفير الذي فيها، والغنة التي في النون .

فإذا جاء مثال خماسي أو رباعي بغير حرف، أو حرفين من حروف الذلاقة فاعلم أنه ليس من كلامهم " . ([1])

هذه الضوابط استعرضها كلها سيبويه، والغريب في أمر علماء العربية الذين جاؤوا بعده أنهم حذوا حذوَه، ولم يحاولوا حتى تفسير هذه المفردات التي يظهر أنها كانت معلومة لديهم مثلما هو معلوم عندنا نحن في الجزائر" الشَّبْرْ"، و" الشّنَابِر"، و" الفِلْم "، و" الأفْلام "، و" التّلفون" ، و" التلفونَات" .

والذي يخرج به الدارس للمعرّب عند العرب هو مدى استيعابهم للغتهم ، وإحصائهم المستفيض لحروفها، وبنياتها، ودلالاتها، وأصولها، وفروعها، و وضعوا عيارا يعيّرون به الخالص من الزائف . ونضيف إلى هذه الضوابط بعد مراجعتنا المؤلفات التي تناولت المعرب أن المقاييس الأساسية لاختبار الدخيل من الأصيل هي :

أولا : المادة الأصلية واشتقاقاتها الصغرى والكبرى، وهي القانون الذي اعتمده المعجميّون ، فلو أخذنا مادة (ص ل ي)، أوْ (ص ل و) لما وجدنا فيها ما يمتّ بصلة إلى الشّعِيرَة التي يتعبّد بها المسلمون خمسَ مرات في اليوم والليلة ، وإنما نجدُ فيها ما يدل على الحرَار ...

﴿ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾.

﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَر، وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَر ﴾.

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا وَ يُصَلَّى سَعِيرًا ﴾ .

---

[1] - الجواليقي : المعرب . ص 12

ثاني هذه المقاييس - برأينا - : المعنى الحقيقي والاصطلاحي ، إذ لا يجب أن يغيب عن أذهاننا دور المجاز و دلالته الاصطلاحية .

ثالث هذه المقاييس : الرّسْم الخطي للكلمة، فالصلاة ترسم في المصاحف العتيقة" الصّلوٰت"، فهذا الرسم لا يتوافق ونطقها، إذن فليس بأصيل .

ورابع هذه المقاييس هو مقارنتها بألفاظ أخرى ، كاللاّهوت، والطاغوت، وهَاروت، ومَاروت. هذه اللاحقة (وت) التي تتوفّر في غيرالعربية.

نقول هذا لأننا نجد أن المعرّب قد لا يوجد فيه مقياس واحد من المقاييس التي ذكرها المستعربون ، وهي أجنبية مثل " صِراط " بصورتها الصوتية، وخفّة وزنها، وعذوبة أجراسها ، وشيوع دلالاتها لورودها في القرآن الكريم، بل في السورة التي سميت بأم القرآن، والسبع المثاني، والفاتحة، وهي أكثر السور القرآنية تردّدا على ألسنة المسلمين، يتلوها المصلون آناء الليل وأطراف النهار، وفي كل الأحوال المختلفة.

أرأيتَ لوْ أخذنا نستعرض مادة (ص ر ط) من كل وجوه تقلباتها واشتقاقاتها لما وجدنا علاقة بين معناها المتواضع عليه ، وهو الطريق، وما قرآنا و لا سمعنا أن أحدا من الناس قال : سَلكتُ صِراطَ وهرانَ ، أو صِراط الجزائر، أو غيرهما من الطرق. ومن هنا نستشفّ أن هذه المفردة دخيلة. ونجد لها نظيرا في اللاتينية (Strata) ؛ بمعنى الطريق المعبّد.

فالأعراب الأقحاح أحسن تعريبا من المعجميّين ، فلم يستسيغوا هذه البنية الأعجميّة ، ففعلوا فيها ما ذكرنا آنفا دون شعور أو تكلّف، وإنما بطريقة الحسّ اللغويّ العربي والسليقة العربية.

1 - فقلبوا التاء طاءً ، أولا لتجانُس النطق العربي .

2 - واختاروا لها بنية صرفية على وزن (فِعَال) ثانيا ، فقالوا : صِرَاط .

3 ـ وخصّوا لها دلالة تواضعوا عليها ثالثا، وهي الاستقامة، وهو معنى ذهنيّ مجرّد، بعيد عن المعنى المادّي المدرك بإحدى الحواسّ.

ويبدو أن هذه المفردة قد دخلت العربية منذ عهد بعيد ، وأمد مديد، فاكتسبت صبغة الأصيل المألوف ، والمستعمل المعروف، لما اتّسمت به من تناغم في البنية والحروف ، فلم يقع حولها نشاز ، لا في المعنى ولا في المبنى، مثلما وقع لعمر بن الخطّاب في بعض الروايات، أنه لما قرأ قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَفَاكِهَةً وَ أَبًّا ﴾ ، فقال : " الفاكهة عرفناها ، فما الأبّ ؟ " ، ثم تدارك الأمر فقال : " مالكَ يا عمر وهذا التكلّف ؟ " .

لهذا يجب التحقّق والتحفّظ في أمر الدخيل حتى لا نقع في الغلط . فما ألطف ما نقل الجواليقي عن أبي بكر بن السرّج أنه قال في رسالته في (الاشتقاق) : " مما يحذر منه كل الحذر أن يشتق من لغة العرب لشيء من لغة العجم فيكون بمنزلة من ادّعى أن الطيْر ولد الحوت " .

فاللغات في عصْرنا هذا تداخل بعضُها في بعض ، فهناك مفردات أعجميّة أَخذَت صفة عربية في التداول ، مثل كلمة (أوكي .Ok) ( )[1] تعني (نعم) أو (موافق)، فتمكّنت هذه الدلالة بكثرة الشيوع والاستعمال اليوميّ ، وبخاصّة في المؤسّسات الإداريّة. وكذا لفظة (بَارْدُو) عند المصريين، و هي باللغة الفرنسية (Pardon) تعني (عَفْوًا) .

ومن هذا القبيل ما هو عربي الأصل دخل اللغة الفرنسية مثلا لفظة (Comat) ، وتعني في العربية (الغمّة) ، لكن شيوعها في علم الطبّ مكّنها من الدلالة على (الإغمَاء الكلّي) وفقدان الوعي، فدخلَت القاموس الفرنسي .

ومما هو جديرٌ بالذكر أن المعاجم الفرنسيةَ تُحيلُ على أن أصلها عربي، وهذا إنصاف من العلماء الأجانب . خذْ مثلا معجم (Petit Robert) تجدْ ما قلناه صحيحًا.

---

[1] - وهي اختصار للكلمة الأمريكية : OLL KORRECT

VII ـ الْمُوَلّـد وَ النّحت :

لم يكن العربُ قبل الإسلام يعرفون من اللغة سوى ما يتخـاطبون بـه في معاملاتهم ، أو ما يتساجلون بـه في أشـعارهم ، ليعـبروا عـن أحاسيسـهم ومشاعرهم، أو ما يخطبون به في محافلهم في الفرح أو الترح .

ففي الترح إن حلّ خَطْبٌ ، أو نشبت بينهـم حـربٌ ، أو نـواحٍ عنـد مهلك قريب ، أو إقامة قدّاس عند صنم معبود .

وفي الفرح إن حلّ عيد، أو تزوّج وليـد، أو هَلّ مـولودٌ في يـوم سعيد، وهم مطمئنّون كل الاطمئنان على سلامة لغتهم من الزيـغ و الانزيـاح ، فكـانوا حرّاسا على نقاوتها وصفائها، يعرفون مواقع كلامهم بحكم السليقة والسجية .

وما أن جاء الإسلام حتى تغيّرت المفاهيم ، واشتد الاحتكـام إلى اللغـة فقالوا : لفظ مولد و مصنوع ، ودخيل و أصيل ، ومشـتق و مرتجـل . وبـدأت هذه الثنائية، تتشكل لتأخذ صفة المصطلحات العلمية عند علماء اللسان العربي الذين هبوا لجمع اللغة من أفواه الأعراب الذين لم يمازجوا أجناسا أخرى غـير أهليهم وذويهم ، ومن يتمذهب بمذهبهم ، ويتكلـم بلغتهـم ، فـاضطرّ العلمـاء العرب في عصر الاحتجاج أن يحدّدوا القبائل التي يمكن الأخـذ عنهـا، والـتي لا يؤخذ عنها، فخطوا خريطـة مكانية وأخرى زمانية احتمالية.

فالمكانية هي بالتقريب ما نصت عليها كتـب الطبقـات، حيـث يقـول التَّهَانَوِي : " اعْلم أن هذه العلومَ لم تؤخذ عن العرب قاطبة، بل عن الفصحـاء البلغاء منهم، وهم الذين لم يخالطوا غيرهم : كهُذيل و كِنانة، وبعـض تمـيم، وقيْس عَيْلان، ومن يضَاهيهم من عرب الحجاز، و أوساط نجـد . فأمـا الذيـن صاقبوا العجم في الأطراف لم تعتبر لغاتهم، وأحوالهـا في أصـول هـذه العلـوم، وهؤلاء كحمْـيَر وهَمـذان وخَـولان و الأزْد، لمقـاربتهم الحبشـة، والزنـج، وطـي

وغسّان لمخالطتهم الروم بالشام، أو عبد القيس لمجاورتهم أهل الجزيرة وفارس، ثم أتى ذوو العقول السليمة والأذهان المستقيمة، ورتبوا أصولَها وهذّبوا فصولَها، حتى تقرّرت على غاية لا يمكن المزيد عليها " . ([1])

هذه هي الرقعة المكانية أما الزمانية، فقد صعب عليهم الأمر لأنه ليس للزمان نقطة ابتداء وانتهاء، ﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلاَ هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾ . ([2])

ورغم هذا فقد وضعوا علامات تقريبية، تخص أهل المدر وأهل الوبر، وحددوا المولّد بهذا التحديد " هو ما أحدثه المولِّدون الذين لا يحتجّ بألفاظهم ، والفرق بينه وبين المصنوع أن المصنوع يورده صاحبه على أنه عربي فصيح ، وهذا بخلافه " . ([3])

فلنقف مليّا عند هذا التحديد الذي يستفاد منه أن هذا المولد ما هو إلا تطور لدلالة الألفاظ ، ونعمَ التسميّة . و من الثابت في العقول والقائم في النفوس أن كل جديد، إلا ويتلقاه المحافظون بألسنة حداد، وأن الناس سينقسمون حوله، فأهل اللغة يبحثون عن الشاهد الذي يعزّز مذهبهم، ويتناسب وخاصية العربية الأولى التي نزل بها القرآن، وزكّاها الشعر العربي السابق له ، وهذا الموقف يرتضيه المنهج العلمي عن قناعة مادام القوم في مرحلة الجمع والتصنيف ، والتحقيق والتأليف .

أما المجدِّدون فقد اتّخذوا هذا الشعارَ " علينا أن نقول ، وعليكم أن

---

1 - التهَانَوي : كشّاف اصطلاحَات الفنون . حقّقه الدكتور لطفي عبد البديع. وترجم النصوص من الفارسية الدكتور عبد المنعم محمد حسين، وراجعه الأستاذ أمين الخولي 1382 هـ / 1963. ج1. ص 19

2 - سورة الزمر ، الآية 6

3 - السيوطي : المزهر . ج 1 ، ص 304

تؤوّلوا " . فكان من اللغويين الحائرُ المتردّدُ، والمنكرُ المتشدّدُ، والمعتدلُ المقتصدُ. فأما أبو عمرو بن العلاء (المتوفّى 154 هـ) فحار و تردّد، وقال : " لقد كثُر هذا المولّد حتى كدت أن آمر صبياننا برواته والتأدّب به" .. لكن تلميذه الأصمعيّ (المتوفى 213 هـ) المنكِرَ للمولَّد قال عنه : " لقد لازمته عشر حجج فما سمعته يحتجّ ببيت إسلامي" . وكان من أشدّ علماء اللغة تتبعا للمولد وإنكارا له . فقد رصدتْ لنا كتب اللغة أقوالا كثيرة تدلّ على إنكاره المولد.

ومن المستحسَن أن نثبت له خبرين : أحدُهما من المزهر" للسيوطي" والآخر من الخصائص " لابنْ جنّي" .

جاء في المزهر قال : " و قَال الأصْمَعي تقول : شتّان ما هما ، وشتان ما عمرو و أخوه ، و لا تقل : شتّان ما بينهما . قال : وقول الشاعر :

لَشَتَّانَ مَا بَيْنَ الْيَزِيدَيْنِ فِي النَّدَى يَزِيدَ بْنِ سُلَيْمٍ وَ الأغَرِّ بْنِ حَاتِمِ .

ليس بحجة، إنما هو مولد. و الحجة قول الأعْشى :

شَتَّانَ مَا نَوْمِي عَلَى كُورِهَا وَنَوْمِ حَيَّانَ أَخِي جَابِرِ" . ([1])

كما جاء في الخصائص :" قال أبو حاتم : كان الأصمعي ينكر زوجَة ويقول : " إنما هو زوج" ، ويحتج بقول ا للّه تعالى : ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾. ([2]) . قال فأنشدتُه قول ذي الرّمة :

أَذُو زَوْجَةٍ فِي الْمِصْرِ أَمْ ذُو خُصُومَةٍ أَرَاكَ لَهَا بِالْبَصْرَةِ الْعَامَ ثَاوِيَا.

فقال : " ذُ و الرمّة أكلَ المالحَ و البقْلَ في حَوانيتِ البقالين" . ([3])

بأدنى ملاحظة ندرك أن المولّد الذي أنكره الأصمعي هو الذي كتب له

---

1 ـ السيوطي : المزهر . ج 1 ، ص 319
2 ـ سورة الأحزاب ، الآية 37
3 ـ ابن جني : الخصائص . ج 3 ، ص 295

النجاحُ والاستمرارُ ، فالمتداول على أسِنّة الأقلام ، وألسنة الكتاب " شتان ما بينهما " ، وكذا " زَوْجَة " بالتاء المؤنثة المربُوطة خشية الالتباس ، بالزوج الذي يطلق على الذكر، والبقاءُ للمستعمل ، و الأصلح للتبليغ و الأكثر شيوعا ؛ لكن المهم إدراك اللغويين لهذه الديناميكية اللغوية المتنامية ، والتي رأوا فيها الخيرَ الكثير.

لقد جاء في أمَالي ثعلب أنّه " سُئِل عن التغيير، فقال : هو كل شيء مولد، وهذا ضابط حسن ، يقتضي أن كلّ لفظ كان عربي الأصل ، ثم غيرته العامة بهمز، أو تركه ، أو تسْكين، أو تحريك، أو نحو ذلك ، مولّد .

وهذا يجتمع منه شيء كثير، وقد مَشَى على ذلك الفارابي في ديوان الأدب ، فإنّه قال في الشـمْع و الشّمْعة بالسّكون إنه مولّد ، وأن العربي بالفتح ، وكذا فعل في كثير من الألفاظ " . ([1])

هَذا النصّ يحتوي على قضايا هامّة منها ندخل في صميم المولّد ومفهومه؛ إذْ هو كلّ لفظ عربي الأصل، حَصَل فيه تغيير و تطوير، كتَسْكِين حرف، أو تحريكه، أو تبديل حرْف بحرْف قريب منه في المخرج، أو همْز ما هو غير مهموز، و ترك همزه ... إلى غيره ذلك مما يترتب عنه لَبْس و خلْط بين المعاني .

فعلى هذا سنتناول هذا الموضوع من جانبين :

* **أحدهما** : مَوقف العلماء العرب منه.
* **وثانيهما** : نماذجُ من هذا المولّد .

فالموضوع الأول نجد العلماء العرب متفقين على أن هناك تطوُّرًا في

1 - السّيوطي : المزهر. ج 1 ، ص 311

البنية والأداء، واختلفوا في الرؤية، فمنهم من يرى أن ما قِيس على كلام العرب فهو من كلامهم، سواء كان من أصل عربي، أو دخيل ، ومنهم من أجاز ذلك في اللفظ العربي الذي سُمِع منهم ، أو قِيس على ما له نظير في كلامهم. وسواء كان القائل ينتمي إلى القُدماء أوالمحدثين : " لأنّ المعاني ينتابها المولدون كما ينتابها المتقدّمون " . ([1])

وأن ما قِيس على المطرد فهو مطرد، وما قيس على الشاذّ فهو شاذ، واعتمادهم في ذلك على الكثير الشائع ، ووضعوا ضوابط للقياس ، وحصنوها بالشواهد، والأدلة المستقرأة من كلام العرب ، ولا نريد هنا استقصاءها، واستيفاءها وإنما نريد أن نلمح لها، فلئن كان أبو عمرو بن العلاء والأصمعي والخليل وسيبويه والكسائي والفراء اعتمدوا الرواية، فان أبا عثمان المازني والمبرد وأبا علي الفارسي وابن جني وضعوا القوانين المضبوطة واستقصوا الأشباه والنظائر.

فهذا أبو عثمان المازني يقول : " وكان أبو الحسن الأخفش يُجيز أن تبني على بنتْ عليه العرب ، وعلى أي مثال سألته، إذا قلت له : ابْنِ لي من كذا، مثل كذا ، وإن لم يكن من أمثلة العرب . ويقول : إنما سألتني أن أمثّل لك . فمساءلتك ليست بخطأ، وتمثيلي عليها صواب " .

وكان الخليل وسيبويه يأبيان ذلك و يقولان : " ما قيس على كلام العرب فهو من كلامهم، وما لم يكن في كلام العرب فليس من كلامهم". فكيف تجعل مثالا من كلام قوم، ليس له في أمثلتهم معنىً ؟

و هذا هو القياسُ، ألا ترى أنّك إذا سمعت : قام زيد، أجزت أنت " ظرُف خالدٌ " ، و" حَمُقَ بِشَر " ؟ وكان ما قسته عربيا كالذي قسته عليه،

1 - ابن جَني : الخصائص . ج 1 . ص 24

امتناعهم منه لعلة، لأنك إنما تفسّر أحكام لغتهم، لا ما لم يجئْ عنهم، ولأنك لو ذهبت تذكر أحكام ما لم يجيء لكنت قد شرعت في تفسير ما لم ينطق به عربي" . ([1])

إذاً فالعلّة في ترك هذه الْمُثُل هي أنها لم تأت لها نظائر تُحمل عليها ولا عِلل تفسّر بها، كالخفّة و الثقل، والذكر و الحذف ، والحال و السياق ، فالقوم يدرسون لغة معيّنة، هي العربية بخصائصها البنوية و الإفرادية، والتركيبية، والبيانية، لذا قال سيبويه : " فاستحسنْ من هذا ما استحْسَنَ العربُ ، وأجزْه كما أجازته " . ([2])

أما ما وراء هذا الواقع المنطوق والمسموع والمخطوط فيتولى البحث عنه المذهب الفلسفي حتى قيل " إن الفلسفة تبدأ حيث انتهى العلم " . فكلما اكتشفت الفلسفة واقعا غاصَت وراءه للبحث عن الحقيقة المطلقة للأشياء . فالمذهب الفلسفي يعتمد البحث فيها وراء الواقع، والمذهب اللغوي يبحث الواقع نفسه. وإذا كنا قد لاحظنا ما بين الاشتقاق والتصريف من تلاق ، فإننا نلاحظ هنا ما بين المولد و القياس من تلاق و تداخل، إلا أن القياسَ أضيقُ مجالا، والمولّد أوسع مقالا ، فالأول مضبوط بقواعد محصورة ، والثاني فضاء مطلق ، وللاستعمال الدور الأول في إنتاجه ، سواء من العامة أو الخاصة، وضابطه الوحيد هو السماع ، " و هذا الخلاف الذي بين سيبويه والأخفش يدل على صحة ما ذهب إليه أبو عَلي من أنه يجوز أن تبنيَ من (ضَرَبَ) مثل (جَعْفَر) فتجعله اسما وفعلا و وصْفا، وغير ذلك ، فتقول : (ضَرْبَبَ زَيْدٌ عَمْرًا) . و (مَرَرْتُ بِرَجُلٍ ضَرْبَبٍ) . و (جَاءَني ضربَبٌ) . و (رَأَيْتُ ضَرْبَبًا).

أَلا ترى أن أبا عثمان قال : " ما قيس على كلام العرب فهو من

---

1 ـ نفس المرجع و الصفحة .

2 ـ سيبويه ، تحقيق عبد السلام محمد هارون . ج 2 . ص 69

كلامهم" ، فيجب أن يكون (ضَرْبَبَ) هذا من كلامهم، لأنك وإن لم تسمعه بعينه فقد سمعت ما هو نظيرُه ، فجرى مجرى رفع الفاعل الذي لا ينكسر، لأنك إذا سمعت (قَامَ زَيْدٌ) أجزتَ أنت (قَعَدَ بِشْرٌ) ، وإن لم تسمعهم يقولون (قَعَدَ بِشْرٌ) ، ولكنك سمعتهم يقولون ما هو نظيُره ، وفي معناه ، فكذلك إذا اطرد عندهم (مَهْدَدٌ و قَرْدَدٌ) أجزت أنت أيضا (دَخْلَلٌ و خَرْجَجٌ) ... فهذا هنا كذاك ثّمة .

ولو كان الغَرضُ في البناء تمثيل الكلمة من المبنى منه لزال الخلاف ، لأنهم كلّهم مجمعون على أنه لو قِيل لهم : ما وَزْنُ (غَدَوْدَنَ) من الفعل لقالُوا: (فَعَوْعَلَ) .

و لو قيل لهم : أتُجيزون إلحاقَ بناتِ الثلاثة ببنات الخمسة على مثال (فَعَوْعَل) ؟ حتى يقولوا : (ضَرَوْرَبٌ) لما قاسُوه . فلا يقولون : (هَذَا رَجُلٌ ضَرَوْرَبٌ) ، كما يجيزُون (ضَرَنْبًى) .

ولو قِيل لهم : ما وَزْنُ (غَدَوْدَن) من (ضَرَبَ) ؟ لقالوا : (ضَرَوْرَب) . يريدون به المثالَ لا غير، ولا يريدون به أن يجعلوه اسما ولا صفة . كما يقولون : (هَذَا رَجُلٌ ضَرْبَبٌ) . و (هَذَا رَجُلٌ ضَرَنْبًى) .

فهذا كلّه يُقوّي أن تقولَ : (ضَرْبَبَ زَيْدٌ عَمْرًا) . و أن لا تُجيزَ (ضَيْرَبَ زَيْدٌ عَمْرًا) . ولاَ (ضَوْرَبَ بَكْرٌ خَالِدًا) . ([1])

إن هَذا الحرْصَ الشديدَ على التفرقة بين البنية التي هي هيئة مفرغة وصالحة لأن يصبّ فيها، أي مضمون غير مقيد ولا معلوم قد أجازه العرب فيما له نظير في كلامهم، ومنعوا ما ليس له نظير في نظامهم اللغوي ، فأجازوا الأمثلة التي لها نظائرُ وأشباهٌ ودلائلُ، و تركوا المُثُلَ الأخرى للمولد، والدخيل، والمنحوت، والملحق، والمصطلح عليه.

---

1 - ابن جني : الخصائص . ج 1 . ص 182 ـ 183

ولذا هانَ على أبي علـي الفارسـي أن يخطـئ في مائـة مسـألة ليسـت بقياسية . وشق عليه أن يخطئ في مسألة واحـدة قياسـية، فنشـط فريـق من العلماء للقياس وتحفظ آخرون كالأصمعي الذي قيل عنه إنـه لم يكـن " ينشـط للقياس ولا لحكاية التعليل ... و (ذلك) لقلة انبـعاثه في النظر، وتوفّـره عـلى ما يروى ويحفظ " . (1)

هذا وقد أدرك الخليل أن الأصمعي غـير مؤهـل لعلـم العـروض الـذي ينبني على الأمثلة الجوفاء والتفاعيل ، " فـقال له يوما : يا أبا سعيد كيـف تقطع قول الشاعر :

إِذَا لَمْ تَسْتَطِعْ شَيْئًا فَدَعْهُ وَجَاوِزْهُ إِلَى مَا تَسْتَطِيعُ .

قال : فعلِم الأصمعيّ أن الخليلَ قد تأذّى ببُعده عن علم العروض، فلم يعاوده فيه " . (2)

وقد تدرّجت هذه النظرية إلى نشوء مذهبين ؟ أحدُهما يعتمد القديـم ، لأنه قديم ، والآخر يُؤْثر التطورَ و الارتقاء و مسايرة الواقع ؛ لأنّ كل قديم كـان جديدا يوما ما، وكلّ جديد سيصير قديما لا محالة.

وقد تـجسم مـذهب الأصـمعي في كتـب كثيرة منها كتاب ابن خالويـه " ليْس في كلام العرب " ، ولازالت جذوره تمتد إلى عصرنـا هـذا مـع الدكتـور مصطفى جواد في العراق مع مشروعه الإذاعـي " قُـلْ ولا تَقُـلْ " . وفي الجزائـر مـع الأسـتاذ محمّـد فـارح في الصّحافـة " الخطـأ و الصّواب " . وفي الإذاعـة الجزائرية " لغتنا الجميلة " . وهو مذهب معياري جامد ليس لـه مـن الليونـة نصيب على ألسنة المتكلمين والمؤلفين، فاللغة تتحـرك و تتغـير بشـكل غريـب

1 ـ ابن جني : الخصائص . ج 1 . ص 182 ، وما بعدها .

2 ـ (2) ابن جني : الخصائص. ج 1 . ص 362 .

داخليا وخارجيا. وهم ملتزمون بما جاء في غضون الكلام القديم، فدلالة الألفاظ نامية جادّة في السير نحو الفهم والتفهيم ، فلا تنتظر بشيرة المجامع اللغوية وقراراتها.

ويقابل هذا المذهب" مذهب ما قيس على كلام العرب فهو من كلامهم" الذي انطلَق مع المازني (المتوفّى 249 هـ)، كما رأينا آنفا، وهو المذهب الذي كُتب له الدّوام والاستمرار على مدى العصور و السنين . تلك سنة ا للّه في خلقه ﴿ وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ ا للهِ تَبْدِيلاً ﴾ .

وأما الموضوع الثاني الذي يتعلّق ببعض نماذج المولّد في القديم فمردّها إلى تحوّلات طرأت على العربية التي توسّعت رقعتها الجغرافية والبشريّة ، فلم تبق مساحتها محصورة في شبه الجزيرة العربية ، وإنما تعدّتها إلى فارس والروم ومصر وإفريقيا.

ولهذه الأوطان مجتمعات مختلفة الألسن انطَوت كلها تحت لواء الإسلام االذي دستوره القرآن الذي مزلّ بلسان عربيّ ، والكلّ يطمح أن يتحلّى بلغة القرآن ، فظهرت انكسارات في اللغة ، وانحرافات في النطق تصدّى لها علماء أجلاء بالدراسة والإحصاء، وذلك لقرب عهدهم بالسلامة اللغويّة ، فأحصوا هذه المفردات إحصاءً ودوّنوها في مؤلّفات " لحن العامّة" . وهي مفيدة لأنها تبيّن لنا التطوّر الذي حدَث في العربية .

نكتفي بهذا النموذج البسيط من المزهر للسيوطي :

" قال الموفّق البغدادي في (ذيل الفصيح) : يقال : قرأت آل حاميم ، وآل طاسين، ولا تقل الحواميم.

وقال الموفّق أيضا : " قول العامّة : (هَمْ) فعلتُ مكان (أيْضا) . و (بَسْ) مكان (حَسْب) . وله (بَخْتٌ) مكان (حَظّ) .. كلّهُ مُوَلّد، ليس من كلام العرب " . ([1])

---

[1] - السيوطي : المزهر . ج1 ، ص 304 ـ 309 (بتصرّف).

هذا هو موقف العلماء العرب اللغويين من المولّد في القديم، أما في عصرنا هذا فقد نشط علماء لسانيون، وخصّوه بمؤلّفات رائعة تحت عنوان (المولّد) ، مثل ما فعل خليل مردم، وغيره . وحشروا فيه الدخيل والاصطلاح والمجاز لكثرته، وغزوا كل الميادين، كالكتب الدراسية، والصحافة، والتلفزة، وجميع وسائل التبليغ المرئية والمسموعة، والنشاطات التداولية، فلم يبقَ حكرا على فئة دون أخرى، كما كانت في القرون الأولى للتأليف.

• **النَّحْت :**

النحْت رافِد من روافد العربية ، يمدّها بمفردات منحوتة من مفردتين فأكثر لتأدية معنى يخالف المعاني السابقة للكلمتين ، وفيه اختصار وتوسعة، وخفّة.

ـ **فالاختصار** أنك تختصر كلمتين بوضعك إياهما في كلمة واحدة، فتقول في " بسم الله" بسْمَلَ . وفي " لاَ إلَهَ إلاَّ اللّهُ " هلّلَ . إذا أكثر من قول " لاَ إلَهَ إلاَّ اللّهُ ". و" حَوْقَلَ" إذا أكثر من قول " لاَ حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إلاَّ باللّهِ" ... وغير ذلك.

ـ **والتوسعة** أنك تأتي بمشتقّات هذه الكلم الملحقة بالأفعال ، فـ " بَسْمَلَ " فعل ملحق بالرباعيّ، مثل (دَحْرَجَ) .. فانت تستطيع أن تأتي بالمصدر فتقول " بَسْمَلَة" ، مثل (دَحْرَجَة) . وباسم الفاعل ، فتقول : مُبَسْمِلٌ ، مثل ما تقول (مُدَحْرِجٌ) ...

وهكذا دواليك في باقي الأفعال المنحوتة.

ـ **والخفّة** باديةٌ من الألفاظ المنحوتة ، سمْعا ونطقا، لا تحتاجُ إلى تعليل أو تفسير.

وميزة النحْت أنه موكول إلى الاستعمال ، فلا يرتبط بقاعدة جامدة. يقول ابنُ فارس في الصاحبيّ : " العَرَب تنحت من كلمتين كلمةً واحدةً، وهو جنْس من الاختصار، وذلك كقولك : (رَجُلٌ عَبْشَمِيٌّ) ، منسوبٌ إلى اسمين [عَبْد شَمْس] . و أنشد الخليل :

أَقُولُ لَهَا وَدَمْعُ الْعَيْنِ جَارٍ   أَلَمْ تُحْزِنْكَ حَيْعَلَةُ الْمُنَادِي .

من قوله : (حَيَّ عَلَى) . وهذا مذهبنا في الأشياء الزائدة على ثلاثة أحرف، فأكثرها منحوت " . ( )[1]

وأخذ النحت أكثر من مصطلح، فقد سُمِي بالتركيب المزجي وبالإلحاق والإدغام، وبلغ درجة قصوى من الشيوع في عصرنا هذا ، فلفظة " سونلغاز" هي اختزال " للشركة الوطنية للكهرباء والغاز " . ومثلها " سوناطراك" ، إلى غيرها من الشركات التي نحتت لها كلمة من مجموع كلمات وبلفظ دخيل، فكانت نحتا وتعريبا ومصطلحا . وقديما قال ابن يعيش : " إن التركيب على ضربين :

- تركيب إفراد .
- وتركيب إسناد .

فتركيب الإفراد أن تأتي بكلمتين فتركبهما وتجعلهما كلمة واحدة إزاء حقيقة واحدة بعد أن كانتا بإزاء حقيقتين أو أكثر " . ( )[2]

وقال أيضا : " والشيئان إذا ركّبا قد يحدث لهما بالجمع والتركيب معنى ثالث ، ويخرجان عن حكم ما لكلّ واحد منهما إلى معنى مفرد " . ( )[3]

---

[1] - ابن فارس : الصاحبي في فقه اللغة . ص 271

[2] - ابن يعيش : ج1 ، ص 20

[3] - المرجع نفسه . ج 8 ، ص 155

ونجـد هـذه النـظرية الـدلالية تنـطبق عـلى كثير من الأفعال و الأسماء و الحروف ، ففي الأفعال مثلا :

حَبَّ : فعل يدلّ على إرادة الشيء وابتغائه .

ذَا : اسْم إشَارة ، يعرب فاعلا لفعل (حبّ) .

والنتيجة الدّلالية الجديـدة : حـبّ + ذا = فعـل دال علـى المـدح مثل (نعم) بل نستطيع أن نقول : " حبّذتُ السفر على الطـائرة " ، فـالفعل وفاعله عادا كلمة واحدة .

VIII ـ الْمَجامعُ اللغويّة العربيّة :

أهدافُ المجامع اللغويّة المعاصرة، و دورُها في ترقيّة اللغة العربيّة .

ـ كيفَ نَشأتِ المجامع اللغويّة العَربيةُ ؟

أصاب اللغة العربية ركود قلّما أصاب اللغات البشرية ركود مثلــه، بعد الازدهار الذي عرفته في العصور الذهبية الأولى، وقد صاحب هــذا الانهيـار اللغوي سقوط أغلب الشعوب العربية تحت نير الاستعمار الغربي ، وبـالأخص الإنكليزي والفرنسي ، فزاد الطـين بَلّـة، وانحصـرت اللغـة العربيـة في بعـض الزوايا، و في بعض المساجد ، و في ورود حلقات المتصوّفـين وشـطحاتهم الـتي يرددون فيها طقوسا بالعربية و لا يفقهون لها معنى .

و في هـذا الظرف الذي تعـرف فيـه اللغـة العربيـة انكـماشا ، كـانت اللغـات الأوربيـة تتنـازع البقـاء و التسـلُّط فيما بينها كالألمانيـة و الفرنسية و الإنكليزية و بدرجة أقل الإسبانية و الإيطالية . هنا بدأت فكرة الأكاديميات تـراود هـؤلاء الأقوام لأنّها قديمـة في الـتراث الإغريقـي ، حيـث ظهـرت مـع أفلاطون في محاوراته و نواديه، و اقتفى أثره أرسطو.

و مهمَـا يكـن مـن أمـر فـإن الأكاديميـة العلميـة هـي الـتي أسسـها الكاردينال الفرنسي " ريشيليو" [المتوفّى 1642م] . سـنة 1634م .. و واصـل هذا المجمع اللغوي رسالته في ترقية اللغة الفرنسية التي كانت لهجـة الأسـرة المالكة حتى أصبحت لغـة عالميـة بفضـل الجهـود المبذولـة مـن طـرف العلمـاء اللغويين الفرنسيين . أما المجامع اللغوية العربية فقـد تأخرّت، فـأوّل مجمـع علمي تأسس لترقية اللغــة العربيـة هـو " المجمـع العلمـي بدمشـق 1918 ثـم مجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة 1934 (1) " ثم تلاحقت المجامع اللغوية في

---

1 ـ الأستاذ عبد القادر المغربي، بحث في مجلة اللغة العربية بالقاهرة 1953 ، تحت عنـوان " مجامعنا اللغوية ". ج 7 ، ص 123

العراق و الأردن ، و أخيرا في الجزائر تأسس " المجلس الأعلى للغة العربية" سنة 1998 ـ 1999 ، مع المجمع اللغويّ .

إن هذه المجامع اللغوية التي اعتبرناها رافدا قويا لترقية اللغة العربية لم تنشأ عفوية ، كما لمسنا ذلك في أصل نشأة العلوم العربية ، و إنما نشأت بقصد و إدراك و شعور بالحاجة الداعية إليها، و ذلك للاهتمام الكبير الذي أولته الدول الفاعلة في الساحة السياسية للغات الشعوب المستعمرة حتى تُحْكِمُ السيطرةَ عليها ، لا ماديا فحسب ، وإنما لتصل إلى التحكم المطلق في اللغات و العادات و التقاليد و الأعراف و الديانات . و إلى جانب هذا المسعى هناك الدراسات المتنامية لعلوم اللسان البشري العام في الدول المتقدمة الذين شَيَّؤوا العلوم اللغوية، و أصبحت اللغات من العلوم التجريبية، مثلها مثل الكيمياء، فأنشأت المخابر لدراسة الأصوات ، و طوّرت مناهج البحث العلمي اللغوي ، فلهذه الأسباب أحسّ العلماء العرب بضرورة إنشاء هيْئات علمية لغوية تجمع شتاتهم ، فكانت المجامع اللغوية هي الجامعَ المشتركَ لكل الجهود اللغوية، فلئن كان أبو إسْحاق الحضْرميّ، وأبو عمرو بن العلاء ، و الخليل بن أحمد، وغيرهم ، كلٌّ يعمل على انفراد و اجتهاد ، فإن المجامع اللغوية العربية وحدت الجهود ، في هذه الهيئات، وو وسّعت المجالات ، و ضبطت في لجان مختصة . فلم يبق مجال للعمل الفردي مثلما كان في السابق مع ابن دريد في" الاشتقاق" و ابن الأنباري في" الأضداد" و الجواليقي في " المعرب" ... و غيرهم كثير، فلو أخذنا لفظة "مصطلح" لوجدنا أنفسنا مضطرين إلى مئات المصطلحات المختلفة لعلوم الطبيعة و الأحياء و الزراعة و التاريخ و النحو و الجغرافيا ، و الجيولوجيا ، و علم النفس و التأمين و القانون العام والخاص إلى غير ذلك من المصطلحات الخاصة بكل حقل من الحقول .

• **منهجيّة المجامع اللغوية في العمل اللغويّ :**

1 ـ سارتِ المجامع اللغوية في عملها بالرجوع إلى الموروث اللغوي العربي الضخم أسوة بالمجامع اللغوية الأروبية التي عادت إلى التراث اللاتيني و الإغريقي، فوجدت هذه المجامعُ العربية الخيرَ الكثيرَ في التراث العربي، و من هنا اهتمت بالدرجة الأولى بالجانب التأليفي و التربوي، فأنشأت الكتبَ المدرسيّة، و عملت على تقريبها من الواقع اللغوي الشائع، و هجرت كل ما من شأنه أن يعطل القدرات المختلفة، أو يحدث تشويشا للتلاميذ، و اتبعت مناهج حديثة أغلبها مقتبَسٌ من المناهج الأروبية الحديثة التي كانت سبّاقة في هذا الميدان، و أحدثت أبوابا لم تكن معهودة تماما في التأليف التقليدي، كباب في الرياضة، و آخر للرحلات، و ثالث للمكتبات... إلى غيرها.

2 ـ **النظامُ المحْكَم** : انتقلت المجامع اللغوية من الاجتهاد الفردي إلى الانضباط و سن القوانين التي تحكم سير اجتماعات المجالس المختلفة، و شروط العضوية الدائمة و غير الدائمة للأعضاء و المراسلين . و كل اجتماع يتم عادة ما ينتهي بتوصيات و تقارير تنشر في المجلات الخاصة بكل مجمع لغوي فلم يعد العمل اللغوي السَّبَهْلَلَى، بل انضبط في هيئة رسمية غالبا ما تتألف من :

* الرئيس العام للمجمع أو المجلس .
* الأمين العام للمجمع أو المجلس .
* الأعضاء العاملين .
* الأعضاء المراسلين .

و تضبط رزنامة العمل السنوي و ما يتخلله من نشاطات و لقاءات و أسفار و ندوات و غير ذلك .. كل هذا يتطلب ميزانية ضخمة، وجهودا جبّارة .

و الخلاصة : ...

إن رسالة المجامع اللغوية ليست من السهولة مثل ما يتصور البعيدون عنها، لكن نتائجها محققة و مضبوطة . و بفضل المجامع اللغوية العربية أصبحت اللغة العربية رسمية في هيئة الأمم المتحدة، و اليونيسكو، و منظمة التربية، و الثقافة العربية (أليسكو)، و في مجال الصحافة و الطبع و النشر و الأنترنيت و العوْلمة.

إن اللغة العربيةَ في العالم العربي بصفة عامة، و في الجزائر بصفة خاصة يجب أن تُخْدَمَ قبل أنْ تُسْتَخْدَمَ . و خدمتها في الترغيب فيها بفتح أبواب التشجيع كاستعمالها من لدُن المسؤولين الكبار في وسائل الإعلام كالإذاعة، و التلفزة، و الخُطب، والندوات، لأن كلمة الرئيس بَلْقَاءُ مَشْهُورَةٌ يقتدَى بها و يُحذَى حذوَها . فالكلمة تقوى بقوة قائلها و تضعف بضعفه، كما يحسن أن تفتح أبواب الوظيف العمومي لحامليها، حتى يَلِجُوا أبوابَ الهيئات المختلفة و المكاتب الإدارية، و المناصب الحسّاسة من أبوابها.

و خلاصة الخلاصة :

إنّ اللغة العربية التي تمدها هذه الروافد المتدفقة بالمترادفات و التراكيب قديما و حديثا لقادرةٌ على استيعاب كل المخترعات التكنولوجية، و قادرة أن تساير بشجاعة كل المخترعات و الابتكارات بما لها من مرونة من التحوّل من حال إلى حال قال عنه الأستاذ عبد الملك مرتاض ، رئيس المجلس الأعلى السابق للغة العربية : " لو قارنّا بين حالها في بداية القرن العشرين، وكيف كانت ركيكة ضعيفة إلى حدّ بعيد حتى على مستوى النسج الأدبي، و عاجزة عن استيعاب مصطلحات العلوم بشكل يدعو إلى الرثاء، و بين حالها لدى بداية القرن الواحد و العشرين، وكيف اعتدت رشيقة صقيلة، و فتية حية، و كل هذا التطور الذي أصابها إنما كان بفضْل جهود العلماء ، و مؤسسات التعليم على اختلاف مراحلها و أنظمتها، و معها و سائل الإعلام

الرصينة على تباين قنواتها". ([1])

إن الذين يحاولون أن يوقفوا زَحْفَ اللغة العربية عن تَبوُّئِهَا مكانتها العالمية لخاطئون في تصورهم هذا ، إذ ...

- **كيف يحدث** هذا و قد وعد الله بحفظ الكتاب المنزل بها (القرآن) وبحفظه تحفظ من الضياع والاندثار ؟

- **أم كيف يصحُّ هذا**، ونحن نسمعُ الإذاعاتِ، من الخليج إلى المحيط، بلغة عربية موحَّدة يفهمها كل العرب أينما كانوا، في آسفي أو في الكاظمية ؟

- **ألم يصبح الكتابُ المدرسي موحّدًا** في كل الدول العربية ؟

بلى إن الأجيال اللاحقة ستتحكم أكثر فأكثر في اللسان العربي المبين ، و لكن لتكون اللغة العربية اكثر ترقية و أحكم أداء و أرشد تحكّما في الجزائر، وفي غيرها من الدول العربية .

يحسُن أن نهتم بالمنظومة التربوية بالدرجة الأولى ابتداء من السنة الأولى من التعليم مراعين في ذلك القدرات العمرية المتدرجة من الأدنى إلى الأعلى، و من البسيط إلى المركب، و من المعروف إلى المجهول . لأن كلّ الناس يمرون حتما من البيت أولا و المدرسة ثانيا، فإذا توافرت جيوش الذين تزوّدوا بالملكة العربية، فإنهم لا محالةَ مقتحمون الإدارة و التكنة و المدرسة والدبلوماسية و الفلاحة و غيرها بلغة المنشأ و المجتمع و التكوين . و حينئذ يتحوّل الصراع بين الوجود و العدم . فعَلى المجلس الأعلى للغة العربية أن يبسط نفوذَه على كل المجالس العليا و الدنيا، و كذا الجمعيات الثقافية مهما كان توجهها .



- [1] عبد الملك مُرتاض : صناعة المصطلح في العربية. مجلة اللغة العربية. العدد الثاني. 1999 . ص 17

قائمة المصادر و المراجع الواردة في الكتاب .

* القرآن الكريم ، رواية ورش .

1 ـ آمدي : الموازنة بين الطائيين ـ دار المعارف ـ بمصر . ج2 ، 1961

2 ـ أحمد أمين : ظهر الإسلام ، 3 ج ، مكتبة النهضة المصرية د.ت.

3 ـ ابن جني : الخصائص ، 3 أجزاء من 1952 إلى 1956 مصر .

4 ـ ابن خلدون: المقدمة، مطبعة الكتب المدرسية والكتاب اللبناني بيروت 1960.

5 ـ ابن دريد : الجمهرة في كلام العرب . مطبعة السنة المحمدية مصر 1378هـ / 1958م .

6 ـ ابن سلاّم الجُمحيّ : طبقات فحول الشعراء ، مطبعة المدني ـ مصر د.ت.

7 ـ ابن سيدهْ : المخصّص، 6 ج، دار الآفاق الجديدة بيروت. د.ت.

8 ـ ابن يعيش : شرح المفصل، 10 ج، في 5 مجلدات بيروت. د.ت.

9 ـ أبو حَاتم الرازي : كتاب الزينة في الألفاظ الإسلامية، جزآن في مجلد واحد، 1957 ، مصر .

10 ـ أبو حيّان التوحيدي : الإمتاع والمؤانسة، جزآن في مجلد واحد . مكتبة الحياة . د.ت. بيروت .

11 ـ أبو العباس ثعلب : مجالس ثعلب، تحقيق عبد السلام محمد هارون دار المعارف. د.ت. مصر .

12 ـ أبو هلال العسكري : الفروق اللغوية، دار الآفاق الجديدة بيروت د.ت

13 ـ التهـانوي : كشـاف مصطلحـات الفنـون، ج1 ، حققـه لطفـي عبـد البديع. المؤسسة العامة. د. ت . مصر .

14 ـ الثعالبي : فقه اللغة مكتبة الحياة بيروت . د.ت.

15 ـ الجاحظ :

(أ) البيـان والتبيـين 4 تحقيـق عبـد السـلام محمـد هـارون، مطبعـة الخانجي 1380 / 1960م .

(ب) الحيوان ، ج7، دار إحياء التراث العربي بيروت . د.ت.

16 ـ الجرجاني الشريف : التعريفات، دار الكتب العلميـة، بـيروت 1416 – 1995م .

17 ـ الجواليقي : المعرب. تحقيق أحمد محمد شاكر 1909. أعيد طبعـه في طهران 1960 .

18 ـ خطاي حَمَدْ : بيان إعجاز القرآن، رسالة من ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، دار المعارف المصرية. د.ت.

19 ـ الخوارزمي : مفاتيح العلوم ، دار الكتب العلمية بيروت. د.ت.

20 ـ الرّاغب الإصفهاني : معجم مفردات القرآن . تحقيق نديـم مرعشـلي بيروت . د.ت.

21 ـ رضي الدين الاستربادي : شرح شامية ابن الحاجب، مطبعة حجـازي القاهرة 1358هـ .

22 ـ الزجاجي : الإيضـاح في علـل النحـو ، تحقيـق مـازن المبـارك، دار العروبة بمصر. د.ت.

23 ـ زكي الارسوزي : المعرفة السورية ، عدد مزدوج، ص11. سنة 1980.

هذا الكتاب

هـذا العنوان اقترضه المؤلف من لـدن العـالم الكبـير ابن جنـي الذي عنون أحد أبواب كتابه الشهير الخصائص بـ . شجاعة العربية

ضـم هذا الكتـاب في ثنايا‌ه ثمانية روافد:

1 القـياس وفق نظرة جديدة مبنية على أساس " ما قيس على كلام العرب فهو من كلامهم".
2 الإشتقاق المتطور الذي يعتمد النظير والشبيه والمثيل في كلام العرب
3 الأخذ: وهو رافـد عظيم لم ينتبه إلـيه القدمـاء، وهو أوسـع مجالا مـن الإشتقاق.
4 الترجمة: وهي رافد مهم قديما وحديثا.
5 المصطلح العربي وتطوره.
6 المعرّب: ودوره في الإستعمال.
7 المولد والنحت وهما بابان مفتوحان لكل متوقع...
8 المجامع اللغوية الحديثة ودورها في تطوير العربية.

كـل هذه الروافد تبدو للدراس أنها مطـروقة، ولـكن عندما يطـالعها يكتشف أنها على غير ما تعوّد، لأنها تتـناول قلب الحـدث اللغوي الحي المتداول لا المجتر المبتذل.

دار الآفاق